ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب

جواهر العلوم

« النظر في الكون بهجة الحكماء وعبادة الاذكياء »

تأليف

الشيخ طنطاوي جوهري

مدرس اللغة العربية بمدرسة دار العلوم

طبع على نفقة امين هندية

(الطبعة الثانية)

مطبعة هندية بمصر

١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون



الحمد لله الذى أنار الوجود ببهائه. وعمم المخلوقات بسوابغ احسانه وعظائم آلائه . وافرغها في قالب الكمال . وألبسها حال الجمال. والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج الوهاج . وآله وصحبه السالكين خير منهاج . (اما بعد) فاني علقت منذ نعومة اظفارى بالافكار الربانية . والعجائب الالهية . وبدائع الملك والملكوت . وغرائب الارض والسماء والنبات والحيوان . واختلاف الاشكال والالوان . وجمال صنائع الرحمن فمهما خلوت بنفسي أو فرغت من درسي نصبت في طلابها ووقفت عند الوجهة ببابها فكم من فكرة افلت بعد الطلوع وكم من سانحة ذهبت ولا رجوع حتى الهمنى اللطيف الخبير ان اجمع ما حضر واذر ما غبر وكم لديه من فضل وجود انه اطيف ودود

طوراً يمان اذا لاقيت ذا يمن   وان لقيت معدياً فعدناني

فهاك ما سنح لذهني الفاتر وما استخلصته لنفسي من الدفاتر لا اتقيد بعلم بل اضرب في كل علم بسهم فهو روض جميل الافنان فيه من كل فاكهة زوجان وجنى جنتيه دان فطوراً تقرأ فيه علوم النبات والحيوان وتارة تتأمل في عجائب الاكوان كالبحار والسحاب والهواء وكواكب السماء وعلومها وعلوم الغبراء مستدلاً بآيات قرآنية وافكار جوهرية من العلوم العقلية على نسق جميل واسلوب بديع وبالجملة فهو تحفة للعقلاء وسلوة للادباء وفاكهة النبلاء والاجلة العلماء سرور في الخلوة وزينة في الجلوة وقد استحسن كثير من الاصدقاء واخواننا النبهاء ان اضع هاتيك المقاصد في قالب بديع حسن الترصيع كمقامة ادبية ومناظرات جلية ليكون اشوق للنفوس وادفع للبؤس واجلب للانس واحسن في الدرس وقصصت فيه قصص الفتى ابراهيم والفتاة جمال وما كان من المحاورات بينهما وقد سميته (جواهر العلوم والآداب) تبصرة وذكرى لاولى الالباب وسأتبعه ان شاء الله بكتاب سميته ميزان الجواهر وهو الذى ضمنته دقائق الافكار القديمة والحديثة وهو الذى جمع فأوعى تكميلاً فجاء تماما على الذى

أحسن وتفصيلا وظني في الله عز وجل جميل ان يكون هذا الـكتاب ذكرى لقوم يعقلون وصلة بيني و بين اخوان صفاء عن ظهر غيب لاخيهم يدعون وهم بما خالط قلوبهم من المحبة مخلصون وقد رتبته على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة :

المقدمة في سبب السفر. الباب الاول في عجائب الارض وفيه سبعة عشر فصلاً. الباب الثاني في الكلام على العلويات وفيه أربعة فصول. الباب الثالث في ذكر آيات من القرآن مشتملة على جميع ما تقدم وفيه خمسة فصول. الخاتمة في اجتماع الخليلين. وقد آن ان نشرع في المقصود بعون الله الكريم الودود

المقدمة

« في سفر ابراهيم لطلب فتاة »

اعلم أن شاباً يسمى ابراهيم نشأ في قرية من قرى البلاد المصرية بين الفلاحين وقرأ القرآن فاستشرفت همته العلية ونفسه الزكية الى معالي الامور من العلوم والمعارف واحاسن الآداب واللطائف لما يشاهده من صنائع الرحمن وعجائب النبات والحيوان والانسان فكان لا يقر له قرار ولم يكن له قط أصطبار عن ملازمة الافكار في عجائب الصنعة و بدائع الخلقة

من اختلاف الالوان والصور والاشكال و لطائف الطبيعة ومحاسنها البديعة واختلاف المطاعم والملابس وجمال السماء المزينة بقلائد النجوم ويتأمل قائلاً ما هذا الجمال الباهر والكمال الظاهر وكثيراً ما كان يخلو بنفسه ويتفكر في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء فصار يدعو الله سراً واعلاناً أن يقيض له من يوقفه على علوم هذه العوالم ويلازم الدعاء والضراعة الى مبدعها فأجابه من يجيب المضطر اذا دعاه ويسر له الاسباب لتحصيل مناه فوجهه الى العلماء الاعلام بالجامع الازهر فقرأ علوم التوحيد والفقه والتفسير والادب والحديث والمنطق وغير ذلك ثم رأى نفسه متشوقة الى معرفة هذه العوالم فرجع الى بارئه ودعاه فسهل له قراءة العلوم التي في المدارس من الحساب والهندسة والهيئة وعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلم الجغرافيا والتاريخ وعلم الحيوان والنبات والانسان والطبيعة والكيميا وغيرها من العلوم ثم تاقت نفسه الى قرينة تكون ذات نفس ابية وهمة علية تميل الى ما يميل اليه من العلوم الالهية والعجائب والبدائع فأخذ يجوب البلدان في كل زمان ومكان مجداً في ذلك فكان

اذا سال عن ذوات الخدور من بلاده المصرية من قروية او حضرية واقترح تلك الاوصاف قيل له قد طلبت رابع المستحيلات فتلك اعز من بيض الانوق او الابلق العقوق وما بينهن وبين تلك الصفات في البعد الا كما بين طنجة والهند وهن ابطأ عنها من فقد فهاجر في الارض طلباً لبغيته حتى وصل بلاد الشام التي بارك فيها رب العالمين وجعلها مقر جلّ المرسلين وهو لا يألو جهداً في التفكر في القدرة وبدائع الصنعة فكأن الاشجار تناديه والازهار تناجيه وتحدثه عن جمال باريه فكان يرى أثر جماله فيها ومحاسن صفاته في معانيها وينشد قول الشاعر :

تسبح ذرات الوجود بحمده ويسجد بالتعظيم نجم وأشجار
ويبكي غمام الغيث طوعاً لأمره فتضحك مما يفعل الغيث ازهار



الباب الاول

« في عجائب الارض . وفيه سبعة عشر فصلاً »

الفصل الاول

﴿ في ذكر سبعة أنواع من عجائب النبات ﴾

ولما كان من عادة الله في خليقته انه يؤلف بين الروح وامثالها وان لله ملائكة يسوقون الاشكال الى اشكالها جمعته المقادير الالهية على ذوي مراتب علية واقدار رفيعة سنية ممن تغذوا بلبان الادب وارتضعوا ثدى الحكم في الارض المباركة فاجتمعوا في مجلس حافل ومشهد جامع وكانوا عشرة كاملة واخذوا في نوادر من الفنون والحديث شجون الى ان ذكروا عجائب النبات وغرائب الحيوان من الطرف المليحة والاحاديث الصحيحة

فقال احدهم : سمعت ان في بعض جزائر المحيط الاعظم شجرة تحمل خبزاً يقتات منه اهل تلك الجزيرة ويجنونه ثمانية اشهر في السنة وهو يقوم مقام خبزنا الصناعي وهو غالب

طعامهم جعله لهم البارى قوتاً فضلاً منه ونعمة وذلك الخبز على هيئة كرة زنتها نحو أربعمائة وعشرين درهما ثم ان ثيابهم من قشر تلك الشجرة وقواربهم من سوقها وموائدهم من اخشابها فقد قامت مقام الحبوب وآلاتها واغنت عن زراعة القطن والكتان وغيرهما فسبحان من خص من شاء بما شاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم

فقال الثاني : رأيت في بعض الكتب ان في جزيرة مداغشقر التي هي بجانب افريقيا شجرة تسمى شجرة السياح على هيئة اسطوانة ومرتفعة ارتفاعاً عظيما ولا يزيد ورقها عن اربع وعشرين وهو عريض كالمراوح في اسفل كل ورقة امر عجيب وهو كأس صغير مستظل بظل تلك الورقة فيه ماء يبلغ نصف رطل مصرى عذب سائغ شرابه بارد وتلك الشجرة ليس حولها ماء البتة وانما تكون في الارض المقفرة فترى السياح اذا اشرفت نفوسهم على الهلاك انقذهم الله منه بشربهم من ذلك الماء المستظل بالاوراق حيث يثقبون الكأس من اسفله فيشربون الماء فان كان الكأس مرتفعاً عن الايدى طعنوه بحراب بأيديهم وتلقوه بالاواني فشربوا منه ولعمرك

كم نجت نفوس من الموت بسبب تلك الشجرة وانظر كيف جعل الله عز وجل ذلك الماء بقدر معلوم وقسطاس مستقيم حتى انجى به الوفا من عباده رحمة منه وفضلاً . وسمعت ان في بلاد الهند شجرة تخرج لبناً اخثر[١] من حليب البقر وفي بلاد اميركا شجرة اخرى لها ثمر طعمه كطعم شراب الليمون ويخرج من ساقها لبن ابيض اشهى واحلى من حليب المواشي عليه مدار قوام بعض الجهات في برازيل

قال الثالث: قد علمت ان في الهند وافريقيا شجرة تخرج ثمراً لبه كالقشدة قواماً وطعما ويبقى شهوراً في البلاد الحارة ولا يتغير طعمه ولا لونه فقد سابق النبات في ذلك الحيوان لمنافع الحيوان

وفي كل شيءٍ له آية تدل على انه الواحد

فقال الرابع : قد سمعت ان شجرة الجوز الهندى الذي ترونه يباع بين ظهرانينا يتخذ من جوزه قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب وتطبخ اوراقها كالخضر ويتخذ من عصارة ازهارها سكر ومن اخشابها وقشر جوزها اوان وصحون

(١) قال في الصحاح اخثرت الزبد تركته خاثراً وذلك اذا لم تذبه اه

وقصاع و يتخذون لهم بيوتاً من اخشابها وينسجون من اوراقها حصراً ولها ليف ينسجون منه الثياب والمناخل والقلوع والحبال و يتخذون من دهن جوزها زيتاً ومن نشارة اخشابها حبراً للكتابة ومن اوراقها قراطيس لها فمنها شرابهم ومطبوخهم وحلواهم واوانيهم و بيوتهم وفرشهم وثيابهم واحبال مواشيهم ودهنهم وخبزهم وو رقهم (فتبارك اللهُ احسنُ الخالقين) (وفي الارض آياتٌ للموقنين) اى دلائل دالة على قدرته وعظمته و وحدانيته

فقال الخامس : ايها السادة ما رأينا كالليلة بهجة وأنساً لقد أذ كرتمونا بعجائب الرحمن ولطائف الا كوان وها أنا أذ كر ما خطر بالخاطر ، قد قرأت في بعض الكتب ان من النبات ما أصوله في الهواء لا في التراب فيتعلق على غيره و يمتص غذاءه من الهواء مستغنياً عن الارض وانهارها وفي ازهاره العجب العجاب فقد صور بعضها الرحمن على صورة الانسان وبعضها كأنه النحل او الفراش فلو رأيته لظننت انه يجنى عسل الازهار اذا حركه الهواء كما ان بعض ازهار النباتات الارضية على صورة طيور صفر برأس وعينين ومنقار وعنق وصدر

وجناحين منتشرين بعض الانتشار منتصب القامة كما ينتصب الديك وعند اسفل بطنه نحلة بلون سنجابي واضعة فمها ببطنه كأنها تمتص منه شيئاً وهي ذات رأس وعينين وظهر منقوش وجناحين ممتدين من أصل فخذى الطير وكل هذه الاعضاء واضحة بينة لا أنها تقارب الاعضاء الحيوانيـة مقاربة وتسمى زهرة الطير او زهرة النحـلة في برية بيروت منظر يستوقف الطرف ويدهش العقل ويحار فيه الاريب فسبحانك اللهم دللتنا على حكمتك باتقان صنعتك وعلى جمالك بحسن تصويرك وعلى قدرتك بتنويع الاشكال وتشكيل الانواع

وهل غبت عن شيء فينكر منكم
وجودك لم لم تبد منك الشواهد
وكل وجود عن وجودك كائن
فواجد اصناف الورى لك واجد
سرت منك فيها وحدة لو منعتها
لأصبحت الاشياء وهي بوائد
وكم لك في خلق الورى من دلائل
يراها الفتى في نفسه ويشاهد

كفى مكذباً للجاحدين نفوسهم
تخاصمهم ان انكروا وتعاند

فقال السادس : ومن العجائب الربانيـة النبات المسمى بعابد الشمس وهو نبات بديع الصنع عجيب الاحكام جعله الله عز وجل عاشقاً للشمس يستقبلها اذا طلعت ولا يزال ميله اليها واتجاهه نحوها لسر لا يعلمه الا مدبر الكائنات ورابط السفليات بالعلويات ومدبر الحيوان والنبات وهذا النبات زهرته مستديرة ذات دوائر بديعة محكمة الوضع جميلة الهيئة ظريفة الشـكل تحيط بهـا اهداب كخيوط الحرير وفي وسط نوع منـه شيء كعقرب الساعة فكلما ارتفعت في وسط السماء ارتفع معهـا فاذا استوت في وسطها اتجه اليها على هيئة سطحية الوضع فاذا مالت مال معها الى ان تغرب فسبحان المبدع الحـكيم



الفصل الثاني

(في ذكر المغناطيس والبوصلة واستطراد في تفسير «ان)
(في خلق السموات والارض واختلاف الليل)
(والنهار والفلك » الآية)

قال السابع: هذه العجيبة اذكرتني عجائب المغناطيس وما فيه من الخاصية فكما ان عابد الشمس يستقبلها كذلك نرى الابرة الممغطسة يتجه احد طرفيها دائماً الى النجمة القطبية وقد تميل عنها بعض الميل كما هو مذكور في محله واليكم ايضاح الكلام عليها بعض الايضاح، اعلموا اخواني ان في الكون مادة تسمى حجر المغناطيس او المغناطيس الطبيعي من خواصه جذب الحديد فاذا وضعت قطعة من الحديد بجانب قطعة منه فانه يجذبها اليه وهي تجذب قطعة أخرى والثانية تجذب ما يليها وهكذا فالقطعة الواحدة من المغناطيس تجذب قطعاً كثيرة متتالية من الحديد فترى كأنها سلسلة متصلة ويحملها في الهواء بشرط ان لا يكون ثقلها اكثر من قوة جذبه وكل من الحديد الصلب واللين يكتسب هذه الخاصية اي يجذب الحديد وذلك بدلكه بحجر المغناطيس او بمغناطيس صناعي على كيفيات

مخصوصة معروفة عند أهل هذه الصناعة ولكن تلك الخاصية
لاتدوم في الحـديد اللين وتدوم في الصلب ويسمى ذلك
بالمغناطيس الصناعي ومن عجيب امر المغناطيس انه اذا قرب
قضيب منـه الى برادة الحديد اضطربت اليه واخذت تثب
اليه كما يثب الحيوان ثم تصطف صفوفاً منتظمة حوله على هيئة
اشكال بيضية عجيبـة بعضها وراء بعض بمقادير هندسـية
بديعة فما أعجب هذا النظام الساري في العالم كله حتى سرى
الى الجماد الذي لا يعقل وما هذا العشق الذي يدهش الالباب
(وكم من آيةٍ في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها
معرضون) ولعمرى ان عشق الحديد للمغناطيس لمما يستغرب
اللهم عشق الحديد والقلوب غلف وصفا المعدن والنفوس غـير
صافية فاليك نضرع ان تصفي نفوسنا من الكدر هذا

ومنـه الابرة الموضوعة في البوصلة المعتادة التي تشـبه
ساعات الجيب ولها طرفان احدهما يتجه دائماً جهـة الشمال
والآخر جهة الجنوب والذي في جهة الجنوب يسمى القطب
الجنوبي والذي في جهة الشمال يسمى القطب الشمالي وتأخذ
اتجاهاً يسمى بالخط الجانبي المغناطيسي وهو يميل شرقاً او غرباً

ميلاً قليلاً عن خط الزوال و يختلف ذلك الميل باختلاف الزمان
والقرون والبلاد ومن عجيب هذه الابرة انها قد تتحرك وتستمر
في اضطراب عدة ساعات و يحصل ذلك بكثرة لا سيما في
أوقات ظهور الفجر الشمالي الذي هو عبارة عن نور عظيم يظهر
في الشمال ليلا يراه سكان الاقطار الشمالية كسكان اسوج
ونروج الذين يكثر عندهم الثلج حتى يكسو وجه الارض فيبدو
عليها سناء ورونق وحسن لاشراق نوره على بياض الثلج
فيظنونه فجراً ساطعاً اذاهم في الليل فياليت شعري ما المناسبة
بين ذلك الضوء وتلك الابرة حتى تضطرب اليه وتكثر حركاتها
وأي علاقة بين طرفيها و بين القطب الشمالي والجنوبي وما
هذا الميل الذي يشاهد فيها عنهما ويا سبحان الله كأنه عزوجل
لما جعل النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر كما قال عزَّ
من قائل (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات
البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وقال في آية أخرى
(وعلامات و بالنجم هم يهتدون) وكانت النجمة القطبية لا تزول
عن محلها حتى سميت مسمار الفلك فكان اليها اتجاه نظر الملاحين
في أسفارهم وهي لا محالة قد تحجب عنهم بسحاب او ضوء نهار

كذلك جعل تلك الابرة المغطسة متجهة الى تلك النجمة أو تميل عنها قليلاً بقوانين عرفها اهل تلك الصناعة لتنوب عنها في اداء وظيفتها في ظلمات البحر عند الحاجة الى ذلك فسارت السفن شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً نتردد في انحاء البسيطة وتنقل انواع البضائع وتسهل التجارة فهذه الخاصية اول رافع لشأن المدنية الحاضرة ولولاها لم تسهل المواصلات بين الأمم ولم يعل شأنها فقد كانت السفن قديماً لا تتجاوز شواطئ البحار فانظروا أيها العقلاء كيف جعلت هذه البوصلة لتعرف بها الامكنة المختلفة وتقاس بها البلاد في البر والبحر والظلمة والنور كما جعلت الساعات المعروفة لتقاس بها الازمنة (ان ربكم لرؤفٌ رحيمٌ) ويا سبحان الله كيف يقيس الانسان الزمان والمكان بآلتين صغيرتين في يده حتى كأن السموات والارض اجتمعت في قبضته (ان الانسان لكفورٌ) فهذه من الآيات الدالة على حكمته تعالى وقدرته قال الله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما انزل اللهُ من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

المسخَّر بين السماء والارض لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ) وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هـذه الآية ثمانية أنواع من عجائب مخلوقاته كل نوع منها تحته عجائب لا تحصر وآيات واضحات دالة على قدرته وكماله ووحدانيته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم:

(الاول) خلق السموات والارض فكم فيهما من حكم وعجائب ومصالح يفنى الزمان ولا يمكن حصرها (الثاني) اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بحساب منتظم لا يعتريه خلل ولا يشوبه تغيير (الثالث والرابع) السفن الجاريات في البحار تتردد من قطر الى قطر ومن قارة الى قارة بواسطة تلك الابرة التي ذكرناها وبهُدى النجوم في السماء . فبهذه الابرة ارتفع شأن هـذا العصر وتبادل الناس المنافع واكلوا فواكه الشتاء صيفاً وفواكه الصيف شتاء كما هو مشاهد لسرعة النقل من البلاد الحارة الى الباردة وبالعكس فعمم ربك رحمته حتى عمت هذه النعمة الناس بتلك الابرة الصغيرة فما اعجب ما صنع :

ولقـد اخذتني الحيرة والبهر والدهش عن ان اعبر عما اختلج في صدري من تلك الحكم التي أودعها فيها بل هي التي انتشر بها العلم في جميع انحاء المسكونة لتسهيلها انتقال

النـاس من بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم ثم أعان على ذلك بخار الماء حتى سهل سير السفن في أي وقت من ليل أو نهار هدأ الريح أو تحرك (ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحمَلناهم في البَرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطَّيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضـيلا) و (الخامس) المطر الذي ينزل من السماء على الارض فينبت الزرع ويحي به الحيوان والانسان مقدراً بقدر معـلوم وعلى قدر الحـاجة و (السادس) انه بث أي فرق في الارض الدواب وهي كل ما دب على وجه الارض من جميع الحيوان وكيف اختلفت الصور والاشكال والالوان والمقادير والطبائع والاصـل في كل جنس من أجنـاس الحيوان ذكر وأنثى فقط و (السابع) تصريف الرياح في مهابهـا جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً و (الثامن) السحاب المسخر بين السماء والارض أي الغيم المذلل فانه أمرٌ من أعجب العجـائب التي يحار العقل فيها فمـا هذا الاحكام والاتقان الذي أمسك به في الجوّ ثم نزل قطرات متتاليات ففيما تقدم دلائل لقوم يعقلون أي ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم فيعلمون حكمته تعالى وعظمته وتدبيره ورحمتـه ويناسب هـذا ما رأيت في

الاحياء ان عطاء قال انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذرني أتعبد لربي عزّ وجل فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذن لصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني ان ابكي وقد انزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن وانما ذكرت هذا لكم يا قوم لتعودوا أنفسكم التفكر في جمال الصنعة الالهية

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول ومن حكم تلك

الابرة أنها تعرف بها القبلة أيضاً كما هو مشاهد فقد استبان ان شأنها عظيم في الامور الدينيـة والدنيوية فقـال بعض الحاضرين وأين يوجـد حجر المغناطيس فقـال هو منتشر في الكون الا انه يكثر في بلاد السويد والنرويج في الشمال من أوروبا وذكر الاقدمون انه يفقد هـذه الخاصـية اذا أصابه رائحة الثوم أو حصلت زلزلة فاذا غسل بخل في الحالة الاولى او سكنت الزلزلة في الحالة الثانية رجعت خاصية جذب الحديد اليه والله اعلم فياقوم لماذا كانت رائحة الثوم تضاده ولم توقفه الزلزلة وما المقاربة بينه وبين الخل وبالجملة فأمر المغناطيس قد اعجز العلماء قديماً وحديثاً عن ان يقفوا على سره وليس لهم في ذلك تعليل يشفي الغليل كالكهرباء والضوء والروح وغيرها. قال مؤلف هذا الكتاب وسنشبع الكلام على هـذا وأمثاله ان شاء الله تعـالى في كتابنا « ميزان الجواهر » مما لم تقف عليه في كتاب



الفصل الثالث

(في حكمة الله عز وجل في النبات الذي يشارك الحيوان)

(في الاحساس و يذكر فيه القيطس)

(فقال الثامن) مما سمعنا من عجائب البلدان وغرائبها ان بعض النبات يشارك الحيوان نوع مشاركه وهو ثلاثة انواع : فالاول نوع يقال له السنط الحساس وسمى حساساً لأنه اذا لمسه انسان أوحركه انضمت اوراقه حين احساسها بهوتشنجت فهي كإنسان يستحي من الملامسة والثاني نوع ينبت على غيره من النبات فيتغذى من عصارته كما يتغذى حيوان من جسم حيوان آخر فهو على النبات الآخر كالبرغوث في جسم الانسان يمتص من دمه ويتغذى من جسمه الثالث نوع يتغذى بالحيوان وذلك ان الله جلت حكمته خلق على اوراقه مادة يحلو مذاقها عند الذباب فمن جهله وشراهيته يسقط عليها فمتى احست به تلك الاوراق انضمت عليه وافترسته وامتصته وشربت ما فيه من الرطوبة وتركته ميتاً ورمت بقشره فسبحانك اللهم يا واسع يا حكيم

فياقوم كيف كانت تلك المادة مناسبة للذباب وقد جعلت كشبكة له والتى عليه الجهل بها (انَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ ذو القوَّةِ المتينُ) فقد رزق النبات من الحيوان كأنه يأخذ بثار الاول من الثاني وسبحانك اللهم كل هذه العوالم تطلب صيداً لكن اختلفت شباكها كما نصبت العنكبوت منسوجها لصيد الذباب والبعوض فتأملوا يا اخواني لما كان هذا النبات عديم القوة على اقتناص شوارد الذباب الذي له قدرة على سرعة الطيران وكان لا بد له منه جعل سبب صيده حاضراً عنده لم يكلفه ادنى مشقة في تحصيله لعدم قدرته على شيء اذ لا يكلف العاجز بخلاف العنكبوت مثلاً فانه لما احتاج لصيد ذلك الحيوان نفسه وكان له اي العنكبوت نوع قدرة جعل شبك صيده تلك الخيوط التي يسهل عليه نصبها بترتيب يعجز مهرة المهندسين حيث يحكم السدى واللحمة بمقياس مخصوص ونظام عجيب وتلك الخيوط هي عبارة عن لعابه حين يظهر للشمس فيقتنص الذباب ويقع حين ذاك في الشرك فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم

هدى[١] وهكذا اذا نظرنا لجميع الحيوان والنبات نرى ترتيباً عجيباً وحكما باهرة تعجز احكم الحكماء واعلم العلماء ومما يقرب من هذا ان في الاقطار الشمالية حيتانا عظيمة تسمى القيطس النفاخ وهو حيوان عظيم الخلقة ذو جسم جسيم ومنظر عظيم يبلغ طوله في النهاية ثلاثين متراً ورأسه ثلث جسمه مملوءة زيتاً يبلغ نحو مائة برميل وفكه السفلى خال من الاسنان والعلوى ذو صفائح رقيقة حادة فاذا أراد ان يأكل فتح فاه كالقنطرة ودخل الماء باسماكه فيه فهو فريسته وغذاؤه ثم يخرج الماء بواسطة حفرة انفية موضوعة في أعلى الرأس كأنها انبوبة يخرج منها الماء عند اطباق فمه عليه كنافورة يرتفع ماؤها ثم يقع كمطر رقيق ويبقى السمك فيبتلعه ولا يتغذى الا به ثم ان زيته متى برد يتجمد ويسمى منّ القيطس الذي يستعمل منه الشمع الشفاف فانظروا كيف خص الله عزّ وجل البحر الشمالي بهذا الحيوان فان سكان تلك الجهات يحتاجون الى ما يقاوم البرد الذي يكثر عندهم فخلق الله عزّ وجل لهم هذا السمك في

---

(١) انظر في كتابنا جمال العالم فقد نقلت هناك عجائبه عن علماء الانجليز بتوسع واسهاب اه مؤلفه

بجرمهم واكثر فيه من الزيت ليشربوه فيحدث حرارة ترد هجمات جيوش البرد ويتغذون بلحمه (وما كُنَّا عن الخلقِ غافلين) (وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لَغافلون) وانظروا ياقوم كيف اختصت تلك الاقطار به ولمَ لمْ يخلق في بحارنا ولا اخالكم تقولون الا انه لا احتياج له الا في تلك الاصقاع كما انه عز وجل خلق في ارضهم الدب واكثر منه فيلبس اهل تلك البلاد جلده الغليظ وقاية من غوائل البرد ايضاً قال تعالى (وإنْ من شيءٍ الاَّ عندنا خزائنهُ وما نُنزّلهُ الاَّ بقدر معلوم) وقال تعالى ايضاً (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عمَّا يُشركون) فهو اعلم بمصالح خلقه الحكيم في صنعه المدبر الذي أحسن كلَّ شيء خلقه ثم هدى (ان اللهَ لذُو فضل على الناس ولكنَّ اكثر الناس لا يَشكُرُون) ومن عجيب امر هذا الحيوان انه لا يتنفس في الماء كالسمك بل يرفع رأسه كل عشرة دقائق او خمس عشرة دقيقة مرة واحدة ويتنفس من الهواء وقد كان القدماء من أجل ذلك يسمونه بنات البحر وبنوا عليه حكاياتهم الطويلة من وجود سمك كالآدميين وان كنا لانجزم بكذبه ولكن

هذا ما وصل الينا وانما قلنا لا نجزم بكذبه لان عدم العثور على الشيء لا يدل على عدمه في نفسه وهـذه قضية عقلية غلط فيها علماء أوروبا في العصر الحاضر الا المحققين منهم فكثيراً ما نسمع من الشبان الشرقيين الذين تلقفوا كلمات من علم توجيه سهام اللوم والتنديد الى من زاد على تلك الكلمات لاحسانهم الظن بأولئك القوم واعتقادهم انهم أوصلوهم الى اسمى درجات العلم حتى ان احد الاطباء من المصريين قال لي يوماً انا انكر علم الفلك اذ لا اصـدق الا ما اشاهده فعجبت كل العجب واخذت اقيم له الحجج بالتي هي احسن حتى قنع ثم رأيت له بعض شبه في آيات قرآنية لم يحط بهـا علماً فما زلت به حتى عرف الحقيقة . فانظر كيف انكر هذا علماً برأسه أما علماء الاسلام فهم معتدلو المشارب فلقـد رأيت في كتب تقويم البلدان (الجغرافيـا) حين ذكروا الاقاليم ونهاية الارض المعمورة انهم قالوا وليس وراء هذه البـلاد غيرها اذ لو كان هناك اناس لأتوا الينا او وصلنا اليهم مع تداول السنين وكثرة الاسفار وهذا دليل يفيدنا الظن فقط اذ يجوز ان يكون هناك قوم حال بيننا وبينهـم بحار أو جبال اذ عدم عثورنا عليهم لا

تقتضي عدمهم في انفسهم هذا معنى ما قالوه وبعد ذلك بازمان ظهر كرستوف كلمب واكتشف امريكا من نحو اربعة قرون باعانة الملكة أزابلا وزوجها الملك فرديناند حاكمي اسبانيا فظهر بذلك وجود اناس آخرين

ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول : وهذا الحيوان في غاية القوة حتى انهم اذا ارادوا اصطياده اجتمع كثير من السفن في البحر فاذا رفع رأسه من الماء ليستنشق الهواء رموه بخطاطيف في اطراف الحبال العظيمة فمتى نشبت به تلك الخطاطيف نزل بها في قاع البحر بحركة عنيفة جداً تحدث حرارة شديدة على بكرات وضعت عليها الاحبال بالسفن ولذلك تصب حنفيات عليها عنـد تلك الحركة خوفاً من احتراقها من تلك الحرارة الناشئة عن الحركة وقد تستعاض البكرات من الخشب بمثلها من الحديد والاحبال بسلاسل وبذلك لا يحتاج لصب المياه على البكر والسلاسل وهؤلاء الصيادون متى اصطادوا واحداً منها اغناهم ولكن يبقون على خطر عظيم في البحر من شر أقارب ذلك الحوت اللائي يتربصن بهم الايقاع والفتك في كل آن لقوتها وشدة بطشها فهذا الحيوان من عجائب صنع اللطيف الخبير

الفصل الرابع

(في ذكر مسائل متفرقة في النبات)

(وفيه النبات الذي يتحرك في الدقيقة ستين مرة)

(فقال التاسع) ان في صغير النبات وكبيره وعظيمه وحقيره لآيات لاولى الابصار ودلائل لاولى الافكار وتبصرة للعاقلين على قدرته تعالى عز جلالاً وجل كمالا . فمما خلق ربكم شجرة ساقها عظيم جداً في احدى جزائر كناريا في المحيط الاتلانتكي (بحر الظلمات في غربي افريقيا) فقد رأوا هنالك شجرة عظيمة لو وقف حول ساقها عشرة رجال كل منهم تلاقى اطراف اصابعه باطراف اصابع الآخر مع مدهم ايديهم لم يبلغوا نهاية محيطها وقد قيل ان هذا النبات بطيء جداً حتى قيل ان هذه الشجرة كانت تنمو قبل ابينا آدم بقرون كثيرة واين هذه من النباتات التي لا تشاهد بالعين المجردة وانما تظهر بالمنظار المعظم (المكرسكوب) فان الطحلب الذي يعلو وجه الماء والعفونة التي تلتصق بالجدران وغيرها اذا نظرت بالمكرسكوب رؤيت كأنها بساتين مزهرة مثمرة تسر الناظرين وتبهر المتفكرين او غابات كثيفات او مروج

واسعات نضرات ثم تنتشر بذورها في الهواء مع جملة الهباء
تحل وترتحل في جو السماء والله حفيظ لها ومتى وافقها الحال
استفرخت ونمت وازهرت.ثم هذا البذر لا تراه العين المجردة
الا كالغبار الاخضر فانظروا هـذا العظم مع هذا الصغر وما
هـذا التباين العظيم والفرق الجسيم . وكان ابراهيم المصري
تلوح على محياه في ذلك المجلس بوارق النور ولوامع الاشراق
لملاءمة تلك النوادر الطبيعيـة ما في فؤاده وموافقتها لغريزته
فكان كلما سمع نادرة ازداد وجهه اشراقاً وبهجة وضياء فقام
بينهم خطيباً وقال يا معشر الرفاق لقد آثرتمونا بالايناس والبشر
والاحسان والفضل والمعروف ومنحتمونا فوائدكم وألتمونا
عوائدكم فقـد عمني السرور وشملني الحبور بحسن أحاديثكم
ولطف شمائلكم وما اقتبست من أنواركم فتشبهت بكم وقمت
بينكم خطيباً شاكراً لصنيعكم ملتمساً ان تأذنوا لي ان القي على
مسامعكم ما اطلعت عليه من تلك العجائب وذلك ان في بلاد
الهنـد على نهر الكنج نباتاً تتحرك اوراقه كل دقيقة ستين
مرة فمن ذا الذي يشاهد هذا او يسمع به ولا يأخـذه العجب
في ذلك الابداع والاحكام والاتقان فهي ساعـة لا يعتورها

خلل ولا يشوبها ملل تحرك ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء تحرك الريح ام سكن قد شهدت بان فاعلها قادر مختار لا يحكم عليه ناموس ولا تدخل قدرته تحت تحديد فانظروا ماذا في السموات والارض وما خلق الله من شيء فان آجالنا قصيرة ومدتها حقيرة :

شرّد النوم عن عيونك وانظر حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرئ لم يشاهد حكمة الله ان يذوق المناما

ومن العجائب نبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها في الهواء مخاريط هندسية وورقته مؤلفة من ثلاث وريقات اكبرها العليا في الوسط والصغريان تحتها على الجانبين وهما تتحركان مدة حياتهما ليلاً ونهاراً تحرك الريح ام سكن في البرد والحر والصحو والمطر والشمس والظل والظمأ والري (فتبارك اللهُ احسنُ الخالقين) ومنه نوع تتحرك ورقته الوسطى صباحاً ومساءً فقط كأنها دلالة على اقبال النهار وادباره بخلاف الجانبتين فان احداهما ترتفع والاخرى تنخفض طول النهار هذا ولما رأى مشركو الهند تلك الساعه النباتية استعظموا هذه الحكمة وعظموا هذا النبات واعتقدوا ان فيه قوة الهية

وما هو الا شاهد بانفراد خالقه بالربوبية واحكام الصنعة :

وفي كل معبود سواك دلائل من الصنع تبدى انه لك عابد

وكانه عز وجل جعله نموذجاً لتقدير الزمن حيث جعل حركة كل ورقة في مقابلة ثانية ومن الثواني الستين تتكون الدقائق ومن الدقائق تحصل الساعات ومنها الايام ثم الشهور ثم السنون ثم القرون والدهور ولعل أول مقدر للزمن كان ممن رأى هذا النبات واعلموا يا اخواني ان عالم النبات اشتمل على العجائب والغرائب وحير الألباب بما أودع فيه من النظام المحكم والاسرار والحكم فان في اختلاف اصنافه واشكاله واوراقه والوانه وازهاره وطعومه وروائحه وكبره وصغره ومناظره ومنافعه ومضاره وجماله وبهائه وحسنه دلائل قاطعة وبراهين ساطعة على عظمة ذلك الخالق وقدرته وعلمه وارادته وابداعه واحكامه اللهم اهدنا بهدايتك ونور بصائرنا بعنايتك وارشدنا الى اقوم طريق فانظروا الى اللون وحده كالخضرة العامة في النبات فانها نوع واحد ولو قارنا بين اصناف الالوان في انواع النبات لم نجد لوناً يشبه الآخر مع ان النبات الذى علم الآن ينوف عن مائتي الف نوع وكل منها له لون مخصوص من نوع الخضرة.

الفصل الخامس

(محاورات بين خاطبين ومخطوبات)

وكان بالمجلس شيخ من ذوي اليسار وكبار التجار ذو منظر وسيم تلوح عليه آثار النعمة وامارات الهيبة ودلائل الكمال وقد جلس في ناحية عنهم فقال ايها الشاب الذكي والعالم اللوذعي أرى لغتك مصرية فقال نعم أنا مصرى فقال وماجاء بك هنا وما سبب هذا السفر فاخبره بحقيقة حاله ومنتهى آماله وانه يبحث عن ذات جمال باطني وعلم وادب فتاة قد اتخذت من كل فن طرفاً واغترفت من كل نوع من بحور الأدب بيدها غرفاً فقال همة عالية ونفس شريفة

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل ادراك العلا غرضاً

قد اذكرتني أيها الشاب ما قرأته في كتاب المواهب الفتحية للاستاذ العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بدياركم المصرية أن امرأ القيس آلى على نفسه ان لا يتزوج امرأة حتي يسألها عن ثمانية واثنتين وأربعة فلم يزل يسأل كثيراً من النساء فيجبنه بأربعة عشر فيتركهن حتى صادف

فتاة حسناء فقالت له أطبَاء [1] الـكلبَةِ وأخلافُ النافة وثديا المرأة فتزوجها

قال وقد عثرت على محاورة جرت بين خاطب ومخطوبته مترجمة عن بعض اللغات الأجنبية الى اللغـة العربية فها أنا اقص عليك قصصها بلسان عربي مبين

حكي ان خاطباً قال لمخطوبته في اقتراحه أنا لا اريد من ربة منزلي الا ان تجيد اصلاح طعامي وخياطة ثيابي حتى انها اترفأ الاثواب المشرفة على البلى. فقالت الفتاة اني ليعز عليَّ ان تكون هذه طلبتك ومنتهى اختيارك ومبلغ علمك فقد قيل يعرف الرجال باختيارهم واني لأحسن فيك الظن بان لك وراء ذلك مأرباً اعلى ومراماً اعز واغلى . وها انت ابديت اقتراحك عليَّ وأنا انثى فهاك سؤال الانثى ولتكن رجلاً اني اريد منك ان تكون متحلياً بحليتين ومتسماً بخصلتين اما الاولى فان تكون همتك همة الملوك كما قيل :

---

(١) والاطباء جمع طبي والاخلاف جمع خلف والطبي والخلف للابل والطبي أيضاً لنحو الشاة والفرس وكل من الطبي والخلف للحيوانات المذكورة كالثدي للمرأة اه

همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

واما الثانية فان تكون نوراً يستضاء به في مدلهمات الحوادث كالنجم الثاقب والبدر الساطع متحلياً بحلي الآداب مشرقة عليك شمس المعارف

قسماً بالشمس وضحاها والقمر اذا تلاها لئن طلبت لذيذ اكلك وخياطة ثوبك لم ترم الا طاهي الطعام او خائط قميص وحزام فاين سؤالك من سؤالي واين شانك من جمالي كيف لا وأنا اطلب ملكاً منزلي ولايته رفيع العماد حسن الذكر بين العباد ورجلاً بعيد الصيت في البلاد سديد الاقوال حسن الافعال ولئن اعجبك بهاء جمالي وماء شبابي يترقرق في محياي بهجة وحسناً وورد خدي الذي يكتسي تارة حمرة الخجل واخرى صفرة الوجل فكم افل بدر جمال وانحنى غصن اعتدال وتحولت حال فاذا ذبلت وردته وذهبت نضرته وقلت بهجته فهل ولوعك بي يدوم ومن لي بقلبك اذا اعرض الجمال عني وازورّ (ومن ذا الذي يا عز لا يتغير) وما جمال الظاهر الا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً فهو سريع الفناء قليل الغناء أما الجمال الباطني والكمال النفسي

فهو الذي يأمن معه الغرام ما دامت الفتاة وما دام . اما ظاهر الجمال فطيف خيال وحيلة محتال فكيف يعول عليه في دوام الوصال وهل حبك شمس تستمد من اضوائها سيارات آمالي ولا تكسف . ولعمرك كل فتاة زوجت فاما ان تنال نعيماً مقيماً او عذاباً أليماً

وهاك قولاً فصلاً وحكماً عدلاً : اني اريد بعلاً حسن الاخلاق طيب الاعراق جميل الصفات ذا نفس ابية وهمة علية فان ظفرت منك بذلك فانت بدر وفؤادي منزلته وكنت لك بقلبي اطوع من ساعدك لعضدك ومن بنانك ليدك والا فاصلاح الطعام وخياطة الثياب تنالهما من الفتيات بنح الجنيهات ولكن الفتيات العالمات بقدرهن لو انفقت مافي الارض جميعاً لم يجبنك بقلوبهن وانشدت(١) :

طلبتَ اثمن شيء في الوجود غلا
قلب التي لم ينلها كل من سألا
سألتني وأنا أنثى سؤال فتي
فقف لتسألك الانثى وكن رجلا

---

(١) هو من نظم الشيخ نجيب الحداد

تريدني أن أجيد الطبخ حاذقة

وأرفأ الثوب حتى ما عليه بلا

أما أنا فطلابي أن تقـدم لي

قلباً كنجم ونفساً كالسماء علا

فان طلبت لذيذ الأكل مجتهداً

وان يكون عليك اللبس مكتملا

فانت تطلب طباخاً على قدر

وذات خيط صناعاً تصلح الحللا

اما سؤالي فأعلى من سؤالك لي

ومنيتي فوق ما ترجوه لي املا

اذ أبتغي ملكاً بيتي ولايته

وابتغي رجلا بين الورى مثلا

انا صغيرة سنٍّ في الشباب ولي

من فوق خديَ ورد يكتسي خجلا

لـكنّ ذا كله فانٍ بجملته

وعن قريب ترى ورد البها ذبلا

فهل يدوم غرام في فؤادك لي
بعد الصبا بعد ما قد كان مقتبلا
وهل فؤادك بحر لا قرار له
تجري به سفن آمالي ولا وجلا
فان كل فتاة زوّجت حملت
في زهر اكليلها النعمى او الاجلا
اني اريد مساواة ومعدلة
وخير بعل بخير الخلق قد كملا
فان ظفرت بهذا منك كنت كما
ترومني وأتاك القلب ممتلأً
اولا فان الذي تبغي خياطته
وطبخه فأمور نيلها سهلا
تنالها بأمور المال تبذلها   أما الفتاة واخلاص الفتاة فلا



الفصل السادس

﴿ في بعض آداب السفر ﴾

ثم اخذ التاجر بيد ابراهيم يقصدان الترويض في بعض البساتين واضمر في نفسه صحبته لما اعجبه من ذكائه وبراعة منطقه وحسن شمائله فاخذا يتجاذبان اطراف الاحاديث فكان منها ان قال التاجر لابراهيم: اعلم ايها الشاب اني تركي الاصل وجبت البلاد شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً وها انا الآن استوطنت مدينة اصبهان في البلاد الفارسية وقد اتيت للتجارة في هذه الديار ليسومها التجار ومتى راجت بضاعتها وتم بيعها رجعت الى أهلي وأولادي فان أحببت ان ترافقني في أسفاري وقضاء أوطاري كنت لك معيناً بنفسي ومالي على هذا المطلوب وابحث لك بحثاً دقيقاً فتوسم الشاب فيه الخير وتذكر قول سيدنا علي كرم الله وجهه يابنيّ اذا احببتم الرجل بدون سابقة احسان منه اليكم فاعلموا ان فيه خيراً فارجوه واذا كرهتم الرجل بدون سابقة اذى منه اليكم فاعلموا ان فيه شراً فاحذروه وقول سيد نوع الانسان وافضل ولد عدنان عليه الصلاة والسلام

« الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فرافقه ووافقه وصاحبه وماشاه ونادمه واخذ منه واعطى فراجت بضاعتهم وربحت تجارتهم وكانوا مهتدين في اسفارهم فعرف كلٌّ مشرب صاحبه وخبر مصادره وموارده ثم رجعا وهما فرحان الى بلاد أصبهان في أمن وأمان وربح بلا خسران فألقيا عصاهما واستقرت نواهما وقرا عيناً وذهب عنهما وهن السفر بالحضر ثم اقبل الشيخ العظيم على الفتى ابراهيم وقال له اعلم انه ما كان سنرى معك الا لاخبر خبرك وقد عرفتك صديقاً وفياً كما قيل (السفر يسفر عن اخلاق الرجال) وانما تعرف اخلاق الانسان في أوقات الشدائد التي اشدها الأسفار كما قال افضل أولى الألباب (السفر قطعة من العذاب) وان عندى ابنة نشأت على تعلم العلوم والآداب وارتضعت أثداء الأدب ووردت مناهل بحور المعارف واغترفت من تليدها والطارف وكان أول تعليمها في بلادنا التركية وهي كما تعلم محط رجال الفضل والادب علمها ظاهر ونورها باهر اليها يهرع الطالبون وعليها يعول المسلمون قلوبهم للعلوم واعية لا تسمع فيها لاغية وبعد ان أتينا الى أصبهان

أكبت على مطالعة الكتب العلمية والعلوم الادبية فهي على شاكلتك تميل الى التفكر في المصنوعات وعجائب المبدعات وغرائب السموات وقد أنفت من جميع من خطبها من ابناء التجار والامراء الكبار وأرباب اليسار وانما اخترتك لها خليلا بعد ان تبحث عنها وتعرف أحوالها الظاهرية والباطنية وأنت بعد ذلك بالخيار فسل من تريد وانما فعلت ذلك لانه قيل في المثل اعتن بانتقاء بعل ابنتك اكثر من اعتنائك بحليلة ولدك وها انا اصطفيتك لنفسي واخترتك لابنتي ، فشكره ابراهيم شكراً جزيلاً على صنائعه الجميلة

الفصل السابع

﴿ في سؤال ابراهيم للفتاة في انواع من العلوم ﴾

﴿ وفيه كيفية التفكر في العجائب ﴾

ثم بعد ان سأل ابراهيم عنها من الاصحاب والجيران وعامة اهل البلاد وخاصتهم ووصفوها له وجدها بارعة الجمال عالية العرفان قد فاقت اهل زمانها جمالاً وبهاء وأخلاقاً وآداباً وعرفت الاشغال المنزلية والاعمال البدوية فاستأذن

من ابيها ان يسألها مسائل من العلوم الحديثة والقديمة
فخصص لهما كل يوم ساعة من النهار بحيث تضرب بينهما
الستائر ويجلس هو واخواتها خارجها وتجلس هي وأترابها
المتعلمات داخلها ولما حضر ابوها أول مرة مجلس المناظرة
وجد الخجل بادياً عليهما فقام من المجلس ولم يرجع اليه بعد
ذلك فأخذ يسألها ابراهيم في انواع من العلام العقلية والنقلية
كالتوحيد والتصوف والفلسفة والفقه واللغة والادب وعن
الصنعة الالهية وما اكتشفه العلماء في هذه الاعصر الاخيرة
من كنوز المعارف واللطائف والبدائع والعجائب فوافق شن
طبقه وكانا متضلعين كلام الأوائل وقرأ العلوم الحديثة
في المدارس فمرجا البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان
يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان من كل غريبة شاردة ولطيفة
نادرة فكان يسألها وتجيب وتسأله ويجيب فكان اول ما سألها
ان قال اى علم من العلوم اوفق لطبعك وآنس لفكرك وابهج
لقلبك يسرك لدى الاحزان ويؤنسك اذا تحاماك الخلان
جليسك في الخلوة ومنير وجهك في الجلوة قالت تلك المعارف
الربانية والعجائب الالهية وليس لها حد محدود ولا علم

مخصوص بل كل علم فيه عجائبه وغرائبه اشرقت فيه انواره وظهرت فيه آثاره قال الله تعالى (الله نور السموات والارض) كعلم الفلك وعلم تخطيط البلدان (الجغرافيا) وعلم طبقات الارض(الجيولوجيا)وعلم الانسان والحيوان والنبات والمعادن والجبال والأنهار :

كل شيء منكم عليكم دليل   وضح الحق واستبان السبيل

ولقد كنت في مبتدا امري انتبذ من اهلي مكاناً قصياً في بستان لوالدي ويحار فكري حين انظر الى السماء و زرقتها والنجوم المرصعة فيها وجمالها و بهائها وحسنها ويلذ لي ذلك الفكر وانشد قول مجنون ليلى :

واخرج من بين البيوت لعلني   احدث عنك النفس بالليل خاليا

فيشتد شوقي لا سيما اذا جن الظلام واختلط وارخى الليل سدوله وهكذا اذا هبت نسمات الاسحار على اغصان الاشجار وغنت الاطيار فاذكر عند ذلك الصنعة الألهية والحكم الربانية ويبتهج قلبي ويأنس بها لبي ومن عجيب ما اتفق لي اني كنت اعجب بهذا البيت المتقدم في خلوتي واجده يوافق ما في نفسي من الميل الغريزي الى الوقوف على احوال

هذه العوالم الالهية ولما ساعدني الحظ على مطالعة الكتب والتضلع من العلوم العقلية والنقلية والفكاهية وقرأت البيت المذكور في قصيدة طويلة رأيت بعض العلماء قال ان عليه نفحة معنوية واشارة ربانية فوافق رأيه رأيي ومشربه مشربي فحمدت الله على ذلك وهذا ديدني ودأبي

وكانت كلما ذكرت شيئاً من ذلك يتلألأ وجه ابراهيم نوراً وبهجة لملاءمة ذلك لافكاره وطباعه ثم قال لها ابراهيم ماذا تقولين اذا نظرت لهذه العوالم من وجهة الخالق سبحانه وتعالى فقالت هذا بحر لا ساحل له فهاك مقالاً وجيزاً ان الله سبحانه وتعالى وسعت رحمته كل شيء فهو يكلؤنا بحفظه ليلاً ونهاراً الا ترى الى الشمس المشرقة فانه اذا قرب ظهورها من المشرق وسطعت انوار الفجر تحرك كل حيوان وانتعش بعموم رحمة خالقه اللطيف بعباده الرؤف بهم فتأخذ الحيوانات تجد في تحصيل ما به قوام حياتها فاذا ضعفت قواها واحبت الراحة بالنوم أخذ تلك الشمس المشرقة وواراها بالحجاب عن اعينهم فهناك ترى كل حيوان يرجع الى سكنه ويأنس بحبه ويجن عليها الليل ويكسو وجه الارض بلباس ظلمته ويحمى

الله عز وجل مخلوقاته ويحرسهم بعينه التي لا تنام وهم آمنون مطمئنون فاذا اخذت الاعضاء راحتها واحبت السعي على معاشها اتى بالشمس كرة أخرى وهكذا فالدنيا كبيت مظلم والله ربه والحيوان عياله والشمس سراجه فمتى احتاج العيال للضوء جعل فيها سراجه الوهاج قال تعالى(وجعلنا فيها سراجاً وهاجاً) ومتى استغنوا عنه واراه عن اعينهم بالحجاب وغطاهم بغطاء رحمته وانزل عليهم سكينته ولذلك ترى كل شيء في الليل خاشعاً ساكناً خاضعاً والسكون عاماً والحيوان هادئاً فهناك تتجه قلوب اهل المحبة العارفين والعلماء العاملين لجمال وجه ربهم اذ لا يرون الا واحداً في الوجود ويفهمون معنى قوله عز وجل لمن الملك اليوم واجابته نفسه بنفسه بقوله لله الواحد القهار وهناك يأخذون في التهجد وقلوبهم منشرحة مستطلعة الى كشف الحجب عنها وظهور جمال اشراق بهجة الذات العلية فسبحانك اللهم ياذا الجلال والبهاء ، غمرت عبادك برحمتك وآنستهم بلطفك لك خشعت القلوب ودعتك الألسن على اختلاف لغاتها وبك ابتهج المسبحون وبذكرك لهج المخلصون ولنور وجهك تطلع المحبون وفي جمال بهجة انوارك تحير

العاشقون انت الأزلي الأبدي الأول الآخر الظاهر الباطن فكل مخلوق تحت قهر عظمتك مغمور برحمتك مستشرف لنعمتك ما خلق الأولين والآخرين عندك الا كنفس واحدة وانت السميع البصير تعلم ما بين ايدينا وما خلفنا وما فوق السماء وما تحت الارض وما احسن ما روينا من كلام اهل محبتك العاشقين لجمالك :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه　　　يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فانبهر ابراهيم من حسن كلامها ثم قال كيف تعتبرين من النظر في هذه العوالم من جهة الكمالات النفسية والآداب وغير ذلك فقالت

ليس شيء الا وفيه اذا ما　　　قابلته عين البصير اعتبار

وكل فطن له شواهد فيما يراه من هذا الجمال الباهر فاذا رأى ضياء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وحلل الجمال المشرقة في اكناف السموات والأرض عمد الى نفسه فجملها بأحسن الصفات وابهاها بحيث يكون بساماً نظيف الظاهر والباطن مقللاً للغذاء ملازماً للاستحمام في اغلب الاوقات والوضوء تاركاً للحقد والحسد والغل مواظباً على أداء الصلوات محباً للناس

جميعاً متودداً اليهم فان من يحمل الحقد على الناس ولا يحبهم دنيء المنزله قال عنترة :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب

ولا ينال العلا من طبعه الغضب

ومتى ظهر بهذه الصفات اشرقت أنوار جماله وكماله على كل من جالسه او سمع بسيرته ألا ترى الى قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام (وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) فمن عمل بهذه السيرة كان كالشمس اشراقاً والبدر بهجة والنجم هداية وكان مباركاً أينما كان وظهرت أنواره في قلوب نوع الانسان فقال لها ابراهيم وهل يستفاد غير ذلك قالت نعم كثير منها انه لا يكون الانسان كاملاً الا اذا وقف نفسه على الاعمال الشريفة العامة بحيث يكون كالكواكب المشرقة على العاصي والطائع ولا يطلب بذلك اجراً ولا يرغب عليه شكراً ولعمرك لم يمدح الله عز وجل احداً من عباده بذلك الا المخلصين من الانبياء واكابر الاتقياء اما قرأت كلمات المرسلين (وما أسألكم عليه من أجر إِن أجري الا على رب العالمين) وما ورد في حكاية

الله عن أكابر الدين (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) فمن اتسم بهذا الوصف الجميل وعقل رموز هذه الكائنات كانت حركاته وسكناته خالصة لله عز وجل ومنها انه لا يضيع وقتاً من أوقاته سدى بلا فوائد علمية ولا كمالات ادبية :

على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له منها نصيب ولا سهم

وذلك لما يرى من سير الاجرام الاثيرية والكواكب العلوية بلا انقطاع ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء ومنها ان يقسم الاعمال على الاوقات ولا يؤخر عمل يومه لغده لما يرى من سير النجوم بحساب متقن لا يتغير بمرور الزمان فالاصباح والاظلام والاشهر والاعوام والقرون منتظمة لانها جارية على حساب محقق فلينظم العاقل اعماله في سلك الاوقات بالترتيب ومن لم يعمل بهذه السيرة اختل نظام حياته وضاعت اكثر اوقاته سدى اذ لا يدرى ما يصنع فيها وقد كان صلى الله عليه وسلم يقسم أوقاته أقساماً ويجعل لكل قسم عملاً مخصوصاً (راجع القاضي للشفا عياض) وترى أرباب الدواوين ومواس

الدول وأرباب الاقلام خصصوا لكل وقت عملاً ومن ذكرناهم هم ارباب الحل والعقد في هذه الحياة الدنيا وهم المدبرون لشؤونها فانظر كيف نهجوا على حسب هذا النظام السماوى

ومنها الحكمة والعدل ووضع كل شيء في موضعه ليتم النظام. سئل كسرى انوشروان بم انتظم ملكك؟ فقال بالعدل لاني نظرت في ملكوت السموات والارض فرأيته قائماً بالقسط فعلمت ان الملك لا يدوم الا بالاقتداء بملك الملوك في العدل والنظام على حسب الامكان ولقد شهد الله عز وجل لنفسه بانه لا اله الا هو مدبر الخلق على وجه العدل والقيام بالقسط وشهدت بذلك ملائكته والعلماء بالله عز وجل من بني آدم كما قال تعالى (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوالعلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكل من عرف الاشياء على ما هي عليه علم قطعاً قيام الله عز وجل بتدبير ملكه وشاهد العدل في كل ما يراه في هذا العالم ولعمرك لا يعرف ذلك على أتم وجه الا الله عز وجل ثم ملائكته ثم الكمل الراسخون من بني آدم اما غيرهم فلا يعرفون

من عدل الله تعالى ونظام ملكه الا اسمه قال ابن عباس شهد الله لنفسه بنفسه قبل ان خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا ارض ولا بر ولا بحر — أقول قيامه بالقسط في تدبير شؤون خلقه ونظام عدله هو موضوع كتابنا ميزان الجواهر الذي سيلي هذا ان شاء الله تعالى — ثم قالت ومما يستفاد من الكائنات ترك النوم نهاراً لان الله سبحانه وتعالى جعل الليل لنسكن فيه والنهار للعمل النافع ولذلك ترى حذاق الاطباء يقولون بضرره والتجربة شاهدة بذلك اللهم الا غفوة قبيل الظهر قصيرة جداً لمن يتهجد ليلاً. فقال لها ابراهيم قد قلت يستعمل الانسان الحكمة فكيف ذلك؟ فقالت لا يتكلم الا حيث يحسن الكلام ولا يسكت الا حيث يحسن السكوت ولا يتحرك ولا يسكن الا الحكمة فانى ما رأيت مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا بنظام فقلت من خالف ذلك فهو من الجاهلين الفاسقين واعلم ان كل صفة من صفات الانسان المحمودة فضيلة بين رذيلتين فهما طرفان وهي الوسط كالكرم فانه وسط بين البخل والتبذير وهما مذمومان وهو الممدوح وهكذا التواضع بين التكبر والذلة

والشجاعة بين التهور والجبن وغير ذلك كما قيل :

عليك باوساط الامور فانها سبيل الى نهج الصراط قويم
ولا تك فيها مفرطاً او مفرطاً كلا طرفي كل الامور ذميم

فقال ابراهيم لها ما تقولين في معنى (ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد) فقالت انى تأملت في معناها ليلة من الليالي بعد صلاة المغرب وانا انظر في عجائب السموات فظهر لي ان الانسان تخدمه هذه العوالم الاربعة فانا نشاهد ان السموات مصدر الخيرات التي تنزل على الارض وتكون منهما المنافع الجليلة وهي بينهما كما هو معلوم ثم هنالك عوالم أخرى وراء هذه السموات لا نشاهدها فهي في علمه تعالى لم يطلعنا عليها يأتي لنا منها امداد فتأمل كيف ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العوالم الاربعة على هذا الترتيب وكأن هذا اشارة الى ان كل انسان وحده مخدوم بهذه العوالم جميعها فكل جزء صغير من أي واحد منها نعمة عليه قال تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ثم قال لها ابراهيم قد ظهر بالاختبار ان الاقسام العقلية لكل شيء يظهرها الله في الخارج مثلاً يتصور العقل

ان الممكنات في التناسل أربعة أقسام لانه اما أن يكون نسل الانسان مثلاً اناثاً فقط او ذكوراً فقط او مركباً منهما معاً او يكون الانسان عقيماً وقد ظهر هذا كله في الوجود قال الله تعالى (يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور او يزوجهم ذكراناً واناثاً ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير) هل تعرفين شيئاً نظير هذا ؟ فقالت نعم ان الجهات ست ونرى النبات يتجه برأسه الى اسفل لتناول الغذاء من الارض واختص الحيوان غير الانسان باتجاه رؤوسه الى الجهات الاربع والانسان وحده اتجهت رأسه الى جهة العلو وكأن هذه اشارة عجيبة الى ان النبات اسفل طبعاً والحيوان ارقى منه ومسلط عليه والانسان اعلى منهما ومسلط عليهما ومرشح للترقي الى عالم الملائكة وكذلك نتصور أن يكون الموجود اما مطيعاً لله تعالى أو عاصياً له أو لا يتصور منه طاعة ولا معصية أو جامعاً لهما وقد أبرزه ربك في الخارج فالمطيع دائماً هم الملائكة والعاصي دائماً هم الشياطين والذي لا يتصور منه طاعة ولا معصية هو الجماد والجامع لهما معاً هو الانسان وهكذا الخطوط ثلاثة مستقيم ومنكسر ومنحن وقد أبرز ربك في الخارج هذه

الاشكال في مخلوقاته . فقال لها ابراهيم حسبك ما ذكرته
واخبريني عن اعجب شيء سمعته في المكتشفات الحديثة
قالت نعم قرأت في بعض الجرائد العلمية انهم عثروا على بقر
في الجهات الشمالية الجليدية على اعينها نظارات طبيعية وضعها
ربك من حين خلقها لتقيها شعاع الشمس المنعكس عن
الثلج في الارض فان الارض هناك مكسوة ثلجاً دائماً وهذه
داخلة في عموم قوله عز وجل (وان مِنْ شيءٍ الا عندنا خزائنه
وما ننزله الا بقدَرٍ معلومٍ) ولعمرك ان هذه من اعجب آثار
رحمته ولطفه بخلقه ومن غرائب ما سمعت من اساتذتي حين
تلقي العلوم ان في بلاد الصين نوعاً من الحيات جميل المنظر
مرقشاً منقوشاً بمنظر عجيب حسن تربيه نساء الاكابر ويجعلنه
زينة لهن وجمالاً وهذا النوع خال من السم وقد جعل الله ذلك
الجمال فيه صيانة له عن مد يد الاذى اليه وهو يقوم للنساء
مقام الاسورة في ايديهن بحيث يعودنه من صغره على
الاستدارة على ايديهن كسوار لا نظير له في العالم من حيث
الجمال كما ان في بلاد السودان وافريقا واسيا ثعباناً يقال له
البواليس ساماً كالمتقدم فاعطاه مقسم القوى اللطيف الخبير

جسماً جسيماً ومنظراً هائلاً وقوة عظيمة فيبلغ طوله من ثمانية امتار الى عشرة وهو غليظ كجذع النخلة ويسكن في المغارات وتجاويف الاشجار العتيقة ولا يخرج الا اذا جاع وينتظر مجيء حيوان ليفترسه ومتى ظفر به التف على جسمه وهشمه فيأكل الغزال وبقر الوحش وغيرهما وربما ابتلع الانسان اذا نام ضاماً رجليه فاذا فرقهما ابتلع احداهما حتى اذا وصل الى اصل الفخذ استيقظ النائم وامكنه شق فمه بسكين واخرج رجله سليمة اذ ليس له اسنان البتة بل جعلت معدته تطبخ الحيوان طبخاً فانظر يا سيدي انواع الحيات كيف جعل الله سبحانه سلاح بعضها الجمال وسلاح الآخر القوة وسلاح غيرهما السم (ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار)

الفصل الثامن

(في النحل وعجائبه)

(واستطراد بذكر لقاح ذكور النبات لاناثه)

ثم سألت الفتاة ابراهيم وقالت له يا سيدي شنف مسامعي بعذب الفاظك وجميل معناها في تفسير معنى العجب التي اسمعها

منك من اول ان شرفت منزلنا وسألتنا فقال اعلمي زادك الله علماً وحرصاً على الفوائد ان معنى العجب حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة الشيء او عن معرفة كيفية تأثيره فان الانسان اذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهده قبل ورأى تلك الاشكال المسدسة المنتظمة تحير لعدم معرفة فاعله فان قيل له ان فاعله هو النحل تحير ايضاً من حيث ان ذلك الحيوان الضعيف كيف احدث هذه المسدسات المتساوية الاضلاع المعجزة لمهرة المهندسين مع ما لديهم من العدد والآلات والادراك والتجارب وطول المدة وكيف اهتدت الى تغطية تلك البيوت بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الفار ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس فهذا معنى العجب وكل ما في العالم بهذه المثابة الا أن الانسان يدركه في زمن صباه عند فقد التجربة ثم يبدو فيه غريزة العقل شيئاً فشيئاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط من نظره بطول الانس بها فاذا رأى حيواناً غريباً او فعلاً خارقاً للعادة انطلق لسانه بالتسبيح فقال سبحان الله وهو

يرى طول عمره اشياء تتحير فيها عقول العقلاء وتندهش فيها نفوس الاذكياء (وكم من آيةٍ في السموات والارض يمرُّون عليها وهم عنها معرِضون) فقالت يا سيدي ومن أين هذا الشمع ولمَ اختار الشكل المسدس ومن أي شيء يجمع العسل؟ فقال لها اما الشمع فان النحل يجده على كثير من النباتات مادة بيضاء كالدقيق واما تلك الخلايا وتسديسها فاعلمي انها اختارت من جملة الاشكال الشكل المسدس فلم تبن بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس وهو ان اوسع الاشكال واحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل من الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراصُّ الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس فهذه خاصية هذا الشكل وما اشبه هذا النظام الصغير بالنظام الكبير نظام السموات والارض

فانه كله بحساب متقن وميزان عدل وقسطاس مستقيم بل هذا الذي ذكرناه في النحل من الميزان الذي قامت به السموات والارض وبه احكم كل شيء في هذا العالم بل كل حيوان من صغير وكبير هداه الله عز وجل لمعاشه وجميع لوازمه قال الله تعالى (والذي قدر فهدى) أي هدى الحيوان الى ما يلزم له في هذه الحياة ولقد عرف الناس ذلك قديماً حتى استدل الشاعر العربي على جودة الارض ببناء الضب فيها بيته فقال:

سقى الله أرضاً يعلم الضب انها
بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس كدية
وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

(أقول وسنوضح هذا الموضوع في ميزان الجواهر ايضاحاً تاماً ان شاء الله تعالى)

قال ابراهيم واما العسل فانه قد وضح في هذه الآية أعظم وضوح قال الله تعالى (وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبُلَ ربك ذُللاً يخرُجُ من بطونها شرابٌ

مختلفٌ ألوانهُ فيه شفاءٌ للناس ان في ذلكلآية لقوم يتفكرون)
الخطاب بهذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل فرد
ممن له عقل سليم وفكرمستقيم يستدل به على كمال قدرته تعالى
ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته
وانه كيف ألهم هذا الحيوان الضعيف أن يتخذ تلك البيوت
ويدبر ذلك التدبير مع انه من اضعف الحشرات واصغر
الحيوانات وكيف جعل له ملكة مسلطة عليه وقد قسمت عليهن
الاعمال فجعلت على نفسها وضع البيض فتبيض في كل ثلاثة
اسابيع من ستة آلاف الى اثنى عشر ألفاً [1] وجعلت على
الشغالة التي عندها جميع الاشغال (والشغالة عندها خناثى
النحل أي التي ليست اناثاً ولا ذكوراً) وعدد ما يكون في
الخلية من عشرين ألفاً الى ثلاثين ألفاً فمنها البواب الذي لايسمح
لاحد من غير أصحاب الخلية ان يدخلها ومنها ما هو منوط
بخدمة البيض ومنها ما هو منوط بتربية صغار النحل ومنها
ما يبنى الخلايا ومنها ما يجنى مواد الشمع التي تبنى منها الخلايا

---

(١) من كتاب المختصر المفيد في الاشياء والمواليد لحضرة احمد افندي عبد العزيز

ومنها ما يجنى رحيق الازهار الذي يستحيل في بطونها عسلا تخرجها من فمها لتتغذى به صغار النحل متى خرجت من البيض وينتفع به الناس وكل من هذه الطوائف تؤدي ما عهد اليها بنشاط وهمة على مقتضى اوامر الملكة المسماة باليعسوب او الخشرم (وتسميها العامة أم النحل) وهي أعظمها جثة واكبرها خلقة ومن عجيب امر تلك الملكة انها تقتل كل ما وقع على نجاسة من رعاياها ، ومن سياستها انها اذا أرادت الحمل ارتفعت في الهواء واختارت ذكراً من غير خليتها ترفعاً عما تحت ادارتها فان عندها ذكوراً لا شغل لها عددها من خمسمائة الى الف في الخلية الا ان تبقى لتسافد الملكة وتحبلها ومتى ظهر حملها قتلت الخناثي هؤلاء الذكور لئلا يضيق المكان ويفنى العسل فسبحان من ألهم تلك الحشرة الضعيفة فعل أعظم الملوك من قدماء المصريين الذين كانوا يحكمون على من لا صنعة لهم بالقتل وألهم تلك الملكة ان حفظ رئاستها وشرف ملكها لا يتم الا بالترفع على ما تحت امرتها ولم ترض لنفسها ان يعلوها احد رعاياها كما حرم في شرعنا الاسلامي نكاح العبد لسيدته وذلك لئلا يختل نظام المعيشة بمحاولة كل من الزوجين الرئاسة

على الآخر هذا بكونه زوجاً وقد قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) وهذه بالملك ويا للعجب كيف حفظت النحلة شرعها بذلك ولم تحتج الى أوامر شريعة اما نوع بني آدم فلقصور بعضهم عن ذلك جاء تنبيههم عليه بالشريعة الغراء وهذا يناسب ما سمعته من شيخنا الشيخ حسين المرصفي رحمة الله عليه حيث قال نهاية الانسان بداية الحيوان ولعمري ان في قتل خناثي النحل لذكورها عبرة وتبصرة يشير الى انه لم يخلق في هذا الكون مخلوق الا لحكمة (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار) فياليت شعري كيف يرى الانسان هذه العجائب في الحيوان الضعيف ثم يترك اعضاءه وحواسه ومواهبه الشريفة هملا فضلا عن استعمالها في أنواع المفاسد اعاذنا الله من ذلك

ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة والافعال الغريبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي فكان شبيهاً بالوحي فلهذا قال تعالى (وأوحى ربُّكَ الى النحل) وهي قسمان وحشية تسكن الجبال والاشجار

والكهوف وأهلية وتأوى الى البيوت فيبنى لهـا الناس الخلايا فالذلك قال الله عز وجل (أَنِ اتَّخِذِي من الجبالِ بيوتاً ومن الشَّجرِ ومما يعرِشون) أي يبنون لك من الخلايا ثم ان هنا سراً غريباً ومعنى دقيقاًوهو ان الله الذي دبر الكون على أعجب نظام وابدع اتقان خلق الزهر على ألوان شتى من ابيض ناصع واصفر فاقع واحمر قانٍ أنواع مختلفـة ومناظر متنوعة وجعل منها الذكر والانثى أي ان بعض الزهر ذكر تلقح منه الانثى والآخر انثى تحتاج لطلع الذكر وجميع النباتات التي على سطح الكرة الارضـية على هذا النسق وهذا مشاهد في النخل ثم منها ما له منظر بهج يسر الناظرين وجمال ورونق ومنها ما ليس كذلك فالذي منظره جميل يحتاج في القـاحه الى الحشرات كالنحل وحكمة ذلك الجمال ان تلك الحشرات اذا رأت حسناً واشراقاً وبهجة في ذلك الزهر طارت شوقاً اليـه وشغفاً به حتى وصلت اليه فتمتص من رحيقه المختوم تلك المادة الحلوة التي في أسفل الزهرة وقد علقت اذا ذاك جوانبها بطلع الذكر وهي مادة ناعمة تشاهد في الزهر فاذا قضت وطرهـا وارادت طيرانهـا خرجت الى الزهرة الاخرى فدنت اليهـا

وشربت منها فاحتكت جوانبها في مبيض الانثى فالقحتها ولا علم لها بذلك وانما تفعل على مقتضى تدبير مدبر الكون الذي سخر الحيوان والانسان والسماء والارض وكل حيوان يسعى لغرضه وهو في الحقيقة يعمل اعمالاً عجيبة تحتها منافع غزيرة وفوائد كثيرة وهو لا يعلم بها وتلك الفوائد تعود لا محالة على غيره تسخيراً من مدبر هذا الكون فما لنا لا نعتبر بعد اذ هدانا الله ورأينا عجائبه وتسخيره وكيف نفعل فعلاً ولا نخلص فيه لله الذي صنع هذه الغرائب كلها اذ لا يليق بنا أن تكون افعالنا للنفع العمومي ونحن لا نشعر كهذا الحيوان أولاً يكون فرق بيننا وبينه ونحكم نياتنا في أعمالنا لوجه الله ذي الجلال والاكرام ثم ان الحشرات لا تزال تنتقل من زهرة الى أخرى حاملة من الذكر واضعة في الانثى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب واعتبر وتبصر ولما كان للنحل فوائد كثيرة من تلقيح الازهار كما ذكرنا وضع الشمع ووضع العسل أمرها تعالى بقوله (ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً) أي مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها لا يتوعر عليك مكان تسلكينه ولا تمنعين من رحيق تشربينه ولما كانت تلك

الازهار مختلفة الالوان والروائح والطعوم كما أشرنا اليه آنفاً وخرج العسل مختلفاً كذلك على حسبها اردفه عز وجل بقوله (يخرُج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس) من الامراض التي شفاؤها فيه (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيعرفون بذلك عظمته تعالى وحكمته التي تعجز العقول وانه وضع تلك الاسرار كلها في أضعف خلقه وادناها لا إله الا هو العزيز الحكيم

فقالت يا سيدى قد ذكرت ان في الشجر ذكراً وأنثى فاستمنحك توضيح هذا المقام لغرابته على الافهام فقال ابراهيم ان النباتات كافة لا تثمر الا بان يلقح ذكرها انثاها واعلمي يا عقيلة المجد وربية الشرف ان الزهرة قد تشتمل على اعضاء التذكير واعضاء التأنيث معاً وهذا هو الاغلب في النباتات فيحصل التزاوج بين الزوجين ويتم القران بين الفريقين ويرتفع الشقاق من البين وصل دائم وخل ملائم وتسمى تلك الزهرة الجامعة بينهما خنثى وهي كبيت حوى زوجين وحصل بينهما الوفاق فان لم تشتمل الزهرة الا على اعضاء التذكير فقط سميت في عرف النباتيين ذكراً او على اعضاء التأنيث فقط سميت

انثى وقد جعل اللطيف الخبير تلك الاعضاء محفوظة بالزهرة الملونة غالباً بالألوان البديعة المسماة في عرف علماء النبات بالتويج المحاطة من الظاهر بغلاف لونه اخضر مسمى عندهم بالكاس جعلهما مبدعهما لصيانة تلك الاعضاء ووقايتها وحمايتها ابقاء للنوع الى ما شاء خالقه لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وكم في تلك الازهار من فوائد جليلة فروائحها ذكية تشرح الصدور وتسر القلوب ومنها ما هو نافع طباً كالاقاح (فراخ ام على) وزهر البنفسج ومنها ما يستعمل في العطارة كالورد والفل وزهر النارنج ومنها ما يستعمل في الصباغة كزهر القرطم واعلم ان الزهرة الذكر والزهرة الانثى تارة تكونان في شجرة واحدة وتارة تكونان في شجرتين وفي كلتا الحالين لا يتم اللقاح بينهما الا باشياء خارجة كالماء والحشرات والانسان والهواء والاخير هو الاعم الاغلب واما الماء فقد علم انه هو الحامل طلع زهرة البشنين الذكر وموصلها الى الانثى وصنع الانسان مشاهد في النخل واني ليأخذني العجب من صنع ربي عند التفكر في تلقيح الذرة الشامية والخروع فاما الذرة فكل عود منها ذكره في راسه يسقط الطلع منه على انثاه المسماة بالكوز المطر عند العامة

لـكونها اسفل منـه فهي تستمد الطلع بواسطة الخيوط الملونة بالحمرة او البياض المسماة عنـد العامة بالشرابة وهـذه الخيوط ينزل عليها الطلع من اعلى العود وهو المسمى (الـكذاب) عند العامة ويا للعجب لهذه التسمية كأنهم لما رأوا ان هذه الشماريخ لا يخرج لها ثمر سموها كذاباً لـكونها تـكذب عليهـم في الاتيان بالثمر مع انهـا في الحقيقـة هي المثمرة لانها اب للحب الذى يتـكون على جوانب الـكوز المطر فكيف ينـكر ومن المجرب انه اذا قطع ذلك الـكذاب قبل تمام تربية المطر لا يكون كما ينبغي وذلك لانقطاع امداده فما أعجب هـذا النظام فكأن كل اسـفل يستمد من الاعلى كما تستمد الارض من السماء وجميـع الحيوان والنبات من السماء فهي حكمة سارية في جميع الموجودات ولذلك لـما كان الخروع أنثاه اعلى وذكره اسـفل اقتضت حكمة اللطيف الخبـير ان يدلي فروع الاناث حتى تصير اسفل ليسهل الامر اما التلقيح بالحشرات كالنحل وغيره فقد شرحته آنفاً وها انا الآن اذكر نـكتة لطيفة تقدمت الاشارة اليها وهي ان الزهر الذي تلقحه تلك الحشرات الضعيفـة لوّن بالالوان الجميلة ليطير شوقاً اليها

من بعد كما عرفت آنفاً فهذه من حكم جماله لجمال بنى آدم فان حكمته ان يشيرشوق كل من الزوجين الى الآخر اما الزهر الذي استغنى عن تلك الحشرات فقد حرم الجمال لحصول التلقيح بالهواء مثلاً او الانسان او بالماء (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وقال وهو اصدق القائلين (وما كنا عن الخلق غافلين) فقالت يا سيدي ذكرت جمال بنى آدم ومعلوم ان الزوجين سيان في حب النسل فلم اعطيت المرأة من الجمال اكثر مما اعطى الرجل وعكس ذلك في انواع الدجاج ففي الديك من الجمال ماليس في الدجاجة فقال ان النساء اشد من الرجال..... والديك اكثر شبقاً من انثاه واشد شهوة فاعطيت المرأة الجمال وحسن القوام لتجتذب قلوب الرجال والمرأة لما توفرت فيها داعية ... لم تحتج مع ذلك الى كبير جمال في الرجال وعكس ذلك في الدجاج ثم غلب عليها الحياء وتصببت عرقاً فتغاضى هو وصمت. ثم قال بعد هنيهة : يا سيدة العقائل الاماجد وربيبة الشرف هذا موضوع علمي لابد من البحث فيه والخوض في اقاصيه وادانيه اذ نحن بصدد ذكر عجائب الصنعة الالهية وقد قيل تفكر

ساعة خير من عبادة سنة وقال عليه الصلاة والسلام: (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله) كما رواه في الاحياء واذا اعرض الانسان عن التفكر واتبع هواه واستغرق في لذاته وشهواته هوى في بحر عميق وضل في بر شاسع وينشد اذ ذاك :

لقد ضاع عمر ساعة فيه تشترى	بملء السما والارض ايه ضيعة
فيادرة بين المزابل القيت	وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
افانٍ بباق تشتريه سفاهة	وسخطاً برضوان وناراً بجنة

فمن فتح الله عين بصيرته فليستغرق اوقات فراغه في التفكر والنظر في عجائب صنع الله كما ارشد الله اليه في كثير من مواضع القرآن منها قوله (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففرُّوا الى الله) وههنا نكتة لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهو ان اللذات المحسوسة فوقها الترقي في اللذات الاخرى الى ما لا يتناهى فاما نفس الغبي فقد انتهت لذتها الى هذه النقطة ولم تجاوزها واما العالم العارف فان نفسه تأخذ في الترقي الى ذلك الجمال الاسنى والبهاء والنور فيجد هناك من اللذة ما لا يتصوره الجاهل

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وقد قيل من ذاق عرف وان شئت فتأملي الآية وتعقيب الزوجين بالفرار الى الله ثم قارني هـذا بما قدمنا في حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها وقولها اتاني في ليلتي الحديث ثم قال ذريني اتعبد لربي عز وجل الخ وبما في حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : (حبب اليّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) فليفهم اهل المعرفة وليتفكر في ذلك اهل الذوق وهذه المقارنة لم اعثر عليها في كتاب وقال الله تعالى (أَوَلَمْ ينظروا في ملكوتِ السموات والارضِ وما خلقَ اللهُ منْ شيءٍ وان عسى ان يكون قد اقتربَ اجلُهم) فالامل ممدود والعمر محدود لاممدود

وليس المراد من النظر تحديق الحدقة نحو زرقة السماء وغبرة الارض فمن لم يرَ من السماء الا زرقتها ومن الارض الا غبرتها فهو مشارك للبهائم في ذلك وادنى حالاً منها قال تعالى (لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ولهم أعينٌ لا يبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) قال في الاحياء: سئل ابن المبارك من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك

قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصية التي بها يتميز الناس عن سائر البهائم هو العلم فالانسان انسان بما هو شريف لاجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل اقوى منه ولا لعظمه فان الفيل اعظم منه ولا لشجاعته فان السبع اشجع منه ولا باكله فان الثور اوسع بطناً منه ولا بجماعه فان اخس العصافير اقوى على السفاد منه بل لم يخلق الا للعلم

ماالفضل الا لاهل العلم انهم — على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه — والجاهلون لاهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حياً به ابداً — فالناس موتى واهل العلم احياء

الفصل التاسع

(في بيان ان التفكر في المنصوعات اعلى اللذات)

(وفيه ذكر حكمة الجمال وفكاهات ادبية)

ثم قال : اعلمي ان المراد بالنظر التفكر في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها ليظهر له حقائقها فانها سبب اللذات الدنيوية والسعادة الاخروية

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (أرني الاشياء كما هي) وكلما امعن النظر فيها ازداد هداية ومن لم يكن له حظ من هذا النظر فهو في حضيض الجهل وليس له لذة حقيقية يعول عليها في هذه الدنيا بل مثله كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان وانواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فاما حال القصر والملك الذى فيه فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن ارضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت ايضاً عن سكانه فالجاهل المغرور الذي قصر نفسه على مأكله كما تأكل الانعام وملبسه ولوازم معيشته غفل عن الله عز وجل و بيته وسقفه فلا يعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف المنزل نعم ليس للنملة سبيل الى ان تعرف البيت وسقفه وسكانه وعجائبه و بدائعه لقصور نظرها واما الانسان فله قدرة على ان يجول في هذه العجائب ويعرف

ما الخلق غافلون عنه . قالت قد قلت انه ليس لمن حرم هذا النظر لذة حقيقية وكيف هذا مع انا نرى الاغنياء فرحين باموالهم والصناع بمصنوعاتهم والتجار بتجاراتهم (كل حزب بما لديهم فرحون) ونرى كلاً يدعي انه هو الذي حيزت له الدنيا بحذافيرها . فقال لها ابراهيم اعلمي ان اللذات لا نهاية لها ولا مطمع في استقصائها والعالم المطلع على هذه العجائب الناظر فيها يرى كل من ذكرته من هؤلاء كالصبيان حيث يفرحون بالكرة والصولجان وعندهم اللعب خير من الملك والثروة فكما ان الرجل العاقل يرى الصبيان في غاية النقص بالنسبة له ويتعجب من فرحهم باللعب وغفلتهم عن لذة النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث كذلك العلماء الناظرون في تلك العجائب يرون لذة لا يتصورها من ذكرته من الاغنياء والتجار والحكام والملوك ويعدون من عداهم صبياناً ناقصين ولأضرب لك مثلاً : لو ان خنفساء ذكراً عشق محاسن انثاه وطفق يتأمل فيها وجمالها عنده وسئل عن رأيه فيها لقال ان جمالها اعلى جمال وبهاءها أعظم بهاء ولو قيل له انظر غادة من حسان الانسان فانها

أبهى وجمالها أعلى بل لا نسبة بين خنفسائك وادنى امرأة من نوع الانسان لانكر ذلك اشد الانكار وما ذلك الا لجهله بالحسان من بني آدم اما لو عرفهن وما افرغ عليهن من الجمال والحسن لانكر جمال خنفسائه وترك مذهبه القديم ونبذ الخنافس ولازم الطنافس لينظر الى الحسان من نوع الانسان

وكأن ابراهيم قصد بهذه المحادثة الاخيرة ان يحول فكرها عن الدهشة التي استولت عليها من شدة الحياء فاستأنست ورجعت للبحث معه فقالت يا سيدي كأن جمال الحيوان والانسان وزينة الازهار لم تخلق لمجرد اللهو بل خلقت لحكم عظيمة وكان القادر الحكيم (ولهالمثل الاعلى) عامل نوع الانسان والحيوان معاملة الرجل العاقل للطفل فكما ان الرجل العاقل يدخل السرور على ولده بأنواع الملاذ من الفاكهة والحلوى والملابس المنقوشة المزخرفة وكثرة اللعب ليرغبه في التعلم وملازمة الدرس والآداب لا ليقصر نظره على لهو الصبيان ولعبهم بل أراد أمراً أعلى وهو ملازمة العلم والدرس فهكذا الخالق عز وجل وضع هذا الجمال ومن بعض حكمه انه يكون وسيلة الى النسل وبقاء النوع فكما ان الطفل يفرح بالكرة

التي أعطاها له أبوه كذلك الانسان يفرح بذلك الجمال وكما
ان القصد عند والده ملازمة الدروس والآداب كذلك أراد
الله من الزوجين التناسل لبقاء النوع لبقاء ملكه الى الوقت
الذي أراده وقدره فالتناسل مقصود بالاصالة واللذة مقصودة
بالتبع بل هي وسيلة لم يؤت بها الا للنتيجة ولذلك ترى الفحل
لا يقرب من انثاه وهي لا تشتهيه الا وقت ارادة الحمل ومتى
حملت حملاً خفيفاً أبت الاقتراب منه كما انه يأنف منها أيضاً
وهذا من العجائب الدالة على احكام الله سبحانه وتعالى لصنعته
ولكن ياسيدي كيف تخلفت هذه الحكمة في الانسان فان
الشوق بين الزوجين لا يزال ينمو فاذا كان ذلك لمجرد التناسل كما
في الحيوان فلم دام في الانسان بعد الحمل. فقال: نعم ان الذكر
والانثى في الحيوان ليس بينهما علاقة منزلية ولا يحتاج احدهما
الى الآخر بخلاف الانسان فالرجل محتاج اليها لتدبير منزله
وارضاع أولاده وهي محتاجة اليه في الانفاق فجعل اللطيف
الخبير ذلك السر بينهما لتدوم الالفة ولا يضعف حبل العهد
بالحمل. ثم احس ابراهيم بملل وسآمة من طول هذا الموضوع

والكلام فيه فقال: هل لك في الفكاهات الادبية والآحاديت المستملحة عند الاقدمين قالت : من فيك احلى فقال : —

قرأت في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ما معناه ان اعرابياً دخل على زوجته يوماً فوجدهاولدت ابنة وكانت العرب تكره البنات فخرج من عندها مغضباً لا يلوي عليها ولا على ابنتها و بقي عند جيرانها شهراً حتى مرَّ يوماً من الايام عليها وهي ترقصها وتغني بهذه الابيات :

ما لابي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا
غضبان الا نلد البنينا   تالله ما ذلك في ايدينا
وانما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

فلما سمع هذا القول عطف عليها وعلى ابنتها وقبل رأسهما وعاش أحسن مما كان معهما واعتذر عما فرط منه فتبسمت الفتاة حين سمعت هذه الحكاية ثم سألها سؤالاً حقيقياً في صورة الممازح فقال : ما السبب في طول اذن الحمار وقصر اذن الفرس مع صغر حجم الاول بالنسبة للثاني ؟ فقالت : لان

الفرس قوي حاسة الادراك سريع التأثر بخلاف الحمار فكأن طول اذن الحمار ليجمع الهواء بكثرة ويدخله في الصماخ فيسمع النداء بخلاف الفرس فيكفيه قليل من الهواء لسرعة بديهته ثم قالت : ومن العجب ان الحيوان لما لم يعط الفهم والتفاهم (ومعلوم ان الاوامر انما يعرفها المأمور بحاسة السمع) جعلت اذنه الظاهرة نائبة عن الحاسة الباطنة فربط فيها الحبل ليجره الانسان بالحبل المحسوس في الاذن المشاهدة كما يجر الانسان بحبل معنوي وهو معاني الكلام في الاذن الباطنية ولذلك ترى العامة يقولون يربط الانسان بالاقوال لا بالاحبال. وأخذا يتناشدان الاشعار والملح واللطايف ثم رجعا الى البحث في عجائب الحيوان والنبات ثانياً قالت :

الفصل العاشر

(في دودة الحرير وحكمة قتله وتحريمه على الرجال)

(وما يتبع ذلك من فوائد مهمة)

ان النحل وعجائبه اذكرني الدودة التي تخرج الحرير فان ملابس الحرير أبهج منظراً واغلى قيمة وانعم ملمساً فهي جمال

المخدرات المصونات كما ان شهد النحل تضرب به الامثال في الحلاوة ويا ليت شعري كيف كان ألذ المطعومات واشفاهـا يخرج للانسان من حشرة ضعيفة واغلى الملابس وابهجها من دودة حقيرة ولقـد سمعت ان هـذه الدودة اكتشفتها امرأة ملك من ملوك الصين قديماً فقد رأتها تخرج خيطاً متيناً طوله يزيد عن ألف متر وتلفه عليها حتى تصير داخله في مدة لا تتجاوز أربعة أيام فصنعت من تلك الخيوط لهـا ثوباً فاعجب به الملك ثم صاروا يستخرجون الحرير بواسطتها وحظروا ان يطلع عليه من سواهم من الامم الاخرى كعادتهم في جميع صنائعهم حتى احتال قسيسان يونانيان على أخذه حيث وضعا بيضه في عصا مجوفة خيفـة من عيون الصينيين الذين كانوا لا يدعون غريباً يأخذ من بلادهم شيئاً وذلك كان في نحو سنة خمس وخمسين وخمسماية بعد الميـلاد ثم انتشر بانحاء البسيطة وذكر صاحب دائرة المعارف هذه الرواية وقال ايضاً ان أهل قوص بالبلاد المصرية كانوا يعرفون صنعته قبل التاريخ المتقدم بقرون

هـذا واني سنح لي سؤال أفتأذن لى أن أبديه فقـال :

هات فقالت : ان الله عز وجل جعل ملابس الانسان مختلفة فبعضها من النبات كالقطن والكتان وبعضها من الحيوان كالصوف والحرير فلم كان غالب الملابس الحيوانية امتن واجمل من الملابس النباتية ولم قل نوع الحرير عما سواه فعلا ثمنه ؟ فقال : اعلمي ألهمك الله انوار العلوم والمعارف ان جميع هذا الكون محكم الوضع عند من أوتي الحكمة وانفتحت عين بصيرته ومن ذلك ان اللطيف الخبير دبر الحيوان باتقان عجيب وجعله اشرف من النبات لان النبات غذاء له فهو لا جرم اتم تركيباً واحكم اتقاناً ولذلك كانت نواتجه أجمل وأبهج من نواتج النبات وحسبنا شاهداً على ذلك ضوء الشمع ونور البترول مثلاً فان بينهما بوناً عظيماً وفرقاً كبيراً من حيث الاشراق والاضاءة والحسن وما ذلك الا لكون الاول نتيجة حيوان والثاني خارج من الارض لم تكتنفه شروط وآلات كالاول

هذا وقد جعل الله كل شيء في هذا الملك على حسب المصلحة فاكثر من الضروريات والحاجيات واقل من الكماليات كنوع القطن والكتان فانهما يحتاج اليهما الخاص والعام فاكثر منهما رحمة بعباده وفضلاً منه اما الحرير فانه لما

كان من الكماليات خصصه بذلك الحيوان الضعيف ليقل حتى لا يستعمله الا أهل الترف والنعيم ومعلوم ان فيه خنوثة لا تليق بالرجال فلو كثر لاتخذوه ملابس ولعم الترف وتعطلت اغلب الصنائع أو كادت قال الله عز وجل (وانْ من شيء الاَّ وعندَنا خزائِنه وما ننزلهُ الاَّ بقدَرٍ معلومٍ) وانظري الى هذا الاتقان في الصنع مع ما جاء في الشريعة المطهرة من حظر استعمال الحرير على الرجال وتحريمه عليهم فقد تطابق الوضع الالهي في خليقته مع ما صرح به في أوامر شريعته (ألا لهُ الخلقُ والامرُ تبارَكَ اللهُ ربُّ العالمين) فليبتهج بتلك الحقائق العالمون وليجزل بها المتفكرون

الفصل الحادى عشر

(في أن الشيء كلما كثر الاحتياج اليه كثر وجوده في الكون)

(وبقدر قلة الاحتياج اليه يقل وجوده)

(وانْ من شيءٍ الاَّ عندَنا خزائنهُ وما ننزلهُ الاَّ بقدَرٍ معلومٍ) فقالت يا سيدي قد أنعشت قلبي بأنوار علومك وجميل ادبك وبديع أفكارك فزدنا مما خطر بخاطرك من الحكم التي

تناسب ما تقدم من الوضع الالهي وترتيب الاكوان فلقد شاقني حسن هذا الحديث من حكمة الحرير . فقال اعلمي يا ذات المجد والادب اني كنت يوماً في بعض المزارع ببلاد مصر مشغوفاً بالتفكر في عجائب الرحمن وصنائعه الجميلة فلاح لي معان رقيقة في خلال سطور الكائنات قبل ان ادرس العلوم الطبيعية والعقلية فاحب ان اذكرها لك اجابة للتمسك ان لله عزوجل تدبيراً عجيباً حيث اكثر من الهواء الذي يحيط بنا فجعله فوقنا وامامنا وخلفنا ولم يحوجنا جل وعلا في تحصيله الى مؤنة وذلك لشدة احتياجنا اليه للتنفس منه ولبقاء الحيوان والنبات فانه لو انقطع لحظة واحدة لفنى ذلك كله فان جميع ما ذكر يتنفس منه في كل آن فكما ان الانسان والحيوان يجذبان النفس الى داخل بالشهيق ويتنفس الجلد كذلك النبات يتنفس بأوراقه فيخرج الضار ويجلب النافع واحتياجنا الى الماء اقل فان الانسان والحيوان يعيشان بدونه ساعات كثيرة بل اياماً ولا يصبران عن الهواء ولذلك جعل اقل من الهواء على حسب الحكمة واحتجنا في بعض الاوقات الى استعمال الآلات في احضاره وقد سهلها الله سبحانه وتعالى

ويلي ذلك الحبوب ثم الفواكه المختلفة طعماً وغيره وكذلك
النظر في المعادن كالحديد الذي لولاه لم تتم صنعة من الصنائع
فكل آلة من آلاتها له دخل فيها كابرة الخياط وقدوم النجار
ومحراث الزراع بل لولاه ما صلح جسم الانسان بالدم لان
فيه جزءًا منه وهو الذي يلونه بلون الحمرة ويقوي جسم الحي
ولكثرة منافعه وعمومها ذكره الله عز وجل فقال (وأنزلنا
الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس) وسميت السورة باسمه
ايماء لكثرة منافعه كما سميت سورة النحل لما تقدم من دلالته
على بارئ الكائنات بعجائبه وغرائبه وكالنحاس فان كثرته في
العالم على حسب المصالح والمنافع ولذلك قلت الفضة والذهب
فانهما لتقدير قيم الاشياء والزينة ولا جرم ان قلتهما من اجل
النمو وادقها حتى يكثر قيمة ما قلَّ منهما فربما وزن بالدرهم
ارطال من الفواكه والمطعومات وبمثقال من الذهب يشترى
كثير من المطاعم والملابس ومعلوم ان الزينة ليست مقصودة
لذاتها وانما هي من الكماليات كحسن المنظر وبهجته فلو كثر
الذهب والفضة لتعسر التعامل بهما لرخص قيمتهما وصارا
كغيرهما وكثرت بهما الزينة وولع الناس بحسن المناظر وتركوا

الحاجيات فلم يكترثوا بها وفسد النظام واعتراه الاختلال ثم لننظر الى العقيق والماس ونحوهما فانها ابهج وانضر واندر وجوداً من غيرها فغلا ثمنها وقل حاملوها والمتحلون بها والمتحليات وكأن الله عز وجل دلنا بهذا التدبير المحكم على ان هذا الملك لم يقصد للظواهر كحسن المناظر وانما خلق للمنافع والخير المحض وكأن تلك المحاسن من مكملاته ومتماته فلو اتسع نطاقها وكثر وجودها لانعكست القضية وصارت المقدمة نتيجة والوسيلة مطلباً والفرع اصلا فياعجباً لهذا الاحكام ويا ليت شعري كأن ذلك الجمال الظاهر نطق بلسان حاله معرباً عن جمال بارئه فان كل ما في هذا الكون من الكمال والمحاسن من آثار جماله ورشحات تترشح من ذلك الجمال والنور الاعلى (الله نور السموات والارض) (فتبارك الله احسن الخالقين) ويعجبني قول الشاعر العربي مخاطباً لفتاة قد شغف بحبها :

أوحشية العينين أين لك الاهل
أبالحَزْن [1] حلوا ام محلهم السهل

---

(١) الحزن الارض الصعبة

فني خبرينا ما طعمت وما الذي
شربت ومن اين استقل بك الرحل
وأية ارض اخرجتك فانني
اراك من الفردوس ان فتش الاصل
فان علامات الجنان مبينة
عليك وان الشكل يشبهه الشكل

وفي هذا بارقة من بوارق العلوم العالية يرتاح اليها ذو الفكر الثاقب

(حكم عجيبة وبدائع غريبة)

ثم قالت جمال ما اعجب حكم مبدع هذا الكون وما اغرب نظامه لقد اذكرتني ما رأيته في بعض الكتب ان اعظم المنافع واعلاها واجلها واغلاها يخرج من اصغر الحيوان قدراً واصغره جسماً فهذا الديباج الناعم من دودة صغيرة حقيرة واحلى المطعومات وألذها وهو العسل من تلك الحشرة الصغيرة المعربة عن قدرة باهرة وحكمة تامة (وتمت كلمة ربك) فلله ما اجل ما صنع وابدع واحكم (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) واجمل الزينة وابهاها واغلاها وهو الدر الذي ترصع به تيجان

الملوك وتحلى به اجياد الغواني من احقر حيوانات البحر وذلك
ان الحكيم جلت قدرته وتقدست ذاته خلق في البحر حيواناً
وهو الصدف ويسميه العامة (محاراً) وهو عبارة عن قطعة من
اللحم عليها غطاء خشن من الخارج ناعم من الداخل وله فم يطبقه
لئلا يدخله ماء البحر الملح فيفسده وهيئة غطائه كهيئة كفي
الانسان عند انطباقهما وهما متجافيان ونحن نشاهد نظيره كثيراً
في البحر الحلو وهذا الحيوان يسكن اعماق البحر الملح ويتربص
سكونه من الاضطراب والهيجان في أوقات من الليل ويعلو
شيئاً فشيئاً حتى اذا لامس سطح الماء بغاية التؤدة والسكون
والانتظام فتح فاه متعرضاً لرحمة ربه من الندى والطل وما
يمازجه من العناصر الجوية مما ينزل على أوراق الشجر والزرع
فينزل في جوفه ما قدر له ثم يطبق فمه وينزل بنظام ويتحفظ
من وصول شيء من ماء البحر في جوفه لئلا يفسده ثم يبقى
ساكنا في عمقه ويتدحرج ذلك في جوفه بحركته كما يتدحرج
الزئبق فيكون حبات صغيرة ولا يزال كذلك حتى يصير
ما أخذه من الجو دراً صغيراً وكبيراً (فتبارك الله أحسن
الخالقين) اه بالمعنى والايضاح فتأمل في هذا الجمال المتلألئ

والنور المتوهج كيف ظهر باسم الدر والجوهر كبواسم الثغور من ادنى حيوان البحر الذي ليس له الا حساسة وهي اللمس وبهذا صار اول سلسلة الحيوان مما يلي النبات اذ حيوانات البحر مقدمة طبعاً على حيوانات البر لتقدم الماء على التراب كما أوضحه العلماء والحكماء في شرح دائرة الوجود التي تنظم العالم كله في ترتيب واحد ومنها ملاصقة القرد للانسان التي طار بها داروين فرحاً لقلة اطلاعه على العلوم وظن الغربيون والاغرار من الشرقيين انه علم علماً لم يسبق به راجع نظام العالم والامم الذي الفناه بعد هذا

ولنرجع الى ما كنا فيه فنقول :

فاجمل الزينة من احقر حيوان البحر وابهى الملابس وانفعها من احقر الحيوانات البرية وهي الدودة واحلى المطعومات والذها من أحقر الطيور وهو النحل فانظر هذا التقسيم العجيب كما ان المدنية الحاضرة انما جاءت من قطعة زجاج للنظارات والاستكشافات وقطعة فحم للتبخير وقطعة حديد فانظر كيف كان الرمل (داخل في الزجاج) والحديد والفحم عليها مدار المدنية كما كان تلك الثلاثة عليها الزينة والبهجة هو الله (الذي

أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) فياليت شعري كيف نفهم معنى هـذه الآية وانه أحسن كل شيء خلقه اذا لم ننظر هذا المنظر وكيف اشتق هذا الانسان العجيب من الطين وكيف جعل الماء ينزل على اليابسة فيكون نباتاً وفي البحر فيكون جوهراً ودراً اه

الفصل الثانى عشر

﴿ في الكلام على حكمة الله عز وجل في الحيوان المسمى ﴾
﴿ سرباس وارس وهيئة الاسماك وعجائبها ﴾
﴿ ووضع السفن على منوالها ﴾

ثم قالت الفتاة يا سيدي قد قرأت في كتاب عجائب المخلوقات للامام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني رحمه الله ان الله عز وجل خلق حيواناً يسمى سرباس يوجد في بلاد بلوخستان في قصبة أنفه اثنتا عشرة ثقبة فاذا تنفس سمع له صوت موسيقي حسن يطرب الحيوانات فتجتمع فيصيد منها ما يشتهيه فاذا ضجر من انكبابها عليه واجتماعها حوله صاح فيها صيحة هائلة فتفرقت عنه وقد قيل ان المزمار وضع على شكل قصبة انف ذلك الحيوان

وان في أقصى بلاد الروم حيواناً يقال له ارس له قرن وعليه أثنتان وأربعون شعبة مجوفة فاذا هبت الريح يجتمع الهواء فيها فيسمع منه صوت في غاية الحسن فتجتمع الحيوانات عنده لسماعه وقد ذكروا ان بعض الملوك اهدى اليه قرن منها فترك بين يديه عند هبوب الريح فخرج منه صوت مطرب عجيب حتى كاد يدهش الالباب من سماعه طرباً ثم وضعوه منكوسا فكان يخرج منه صوت محزن حتى يكاد يغلب على الانسان عند سماعه البكاء فهل عندك من علم بهذين الحيوانين في المكشفات الحديثة فقال لها يا سيدتي اني ما عثرت على ذكرهما في المؤلفات الجديدة ولعلهما فيما لم اطلع عليه او انهما قد أنقرضا في الازمان الغابرة وأما جعل المزمار على شاكلة قصبة سرباس فهذا ليس بدعاً في أفعاله تعالى فان ادق الصنائع واعمها فائدة ما اكتسبه بنو آدم وتعلموه الا من الصنعة الالهية الا ترين الى السفن المواخر في البحر كالاعلام فانها وضعت على مثال السمك فقالت وكيف ذلك ؟

فقال ابراهيم : اعلمي نورك الله بنور العلم ان الخالق جل اسمه جعل تركيب الاسماك مناسباً للمعيشة في الماء كما جعل

للطيور أجنحة تساعدها على الطيران في الهواء. فقالت : وكيف ذلك ؟ فقال : ان الاسماك تحتاج في تصرفها في معاشها وتقلبها في اطوارها الى ان تعوم في الماء من جهة الى أخرى او تنخفض تارة وترتفع أخرى او تتجه يميناً ويساراً لتبحث عن غذائها او تهرب من عدوها او تطلب صيدها فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد في الاسماك في الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العوم فقاعة وهي عبارة عن كيس مملوء هواء خالصاً تضغطه اذا ارادت ان تغوص في الماء فيصغر حجمها وتمدده اذا ارادت ان تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستعداً لان يديرها يميناً وشمالاً في البحر فكما ان للسمكة عوامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاديف وشرعاً تسيرها حيثما اراد الانسان وكما ان لها ذنباً يكون موازناً لجسمها عند الانحراف يميناً وشمالاً كذلك جعلت الدفة للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة فلو انقطع ذنب السمكة مثلاً ما أمكنها ان تنحرف الى احدى الجهتين بل تتجه دائماً جهة الامام ولو انعدمت عواماتها التي في جوانبها وعلى ظهرها لوقفت في مكان واحد وتعطلت عن اكتساب

معيشتها ومن العجيب ان الاسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج المياه فتعوقها عن السباحة فما أدق صنعته سبحانه وما اعم رحمته وكل حي يغدو ويروح في بحار نعمه مشمولاً بسوابغها قال عز وجل (وما كنا عن الخلق غافلين) فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم. قال عليه الصلاة والسلام : لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض. فالابل مثلاً قصرت اذنابها لاستغنائها بطول اعناقها وعكس ذلك في البقر وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحاً ليراجعها محب الحكمة في العلوم الطبيعية (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

الفصل الثالث عشر

(في حكمة خلق الحشرات)

فقالت يا سيدي اني اعتقد ان كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحار فيها العقول ولكن الى الآن لم اصل الى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض فهل عثرت

على ذلك في كتاب قال نعم ان الله عز وجل يخلق الشيء لحكم كثيرة منها ما يعرف ومنها ما لا يعرف اما هذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فان حكمها كثيرة منها ان العفونات الفاسدة التي على وجه الارض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الخراب فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك ترين الزنابير والديدان والخنافس في دكان القصاب (الجزاز) والدباس [1] اكثر مما يرى في دكان البزاز (القماش) والحداد فاقتضت الحكمة الالهية صرف العفونات اليها ليصفو الهواء منها ونسلم من الوباء ومن الحكم العجيبة والاسرار الطبيعية الالهية انك ترين ان نحو الحيات والعقاوب تسكن عادة وتكثر في الاماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الارض من الخنافس والصراصير وغيرها وترين (الناموس) لا يتولد الا في المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر في المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلاً عن كونها

(١) الدباس هو صانع الدبس وهو ما يسيل من الرطب

تحيل الى جسمها المواد الفاسدة وتنقي الهواء فهي من جهة اخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الانسان فتحمله على ازالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول ان لم تصلح هذا المكان فلتخرج منه والا لدغتك

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لا يحس الانسان بضرره فيحدث الضرر في الاجسام أو يميت الانسان وهو لا يشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سماً يحس بألمه الانسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه الا البعد عن تلك الاماكن العفنة فضلاً من الله ونعمه

وهكذا نرى ان من على وجهه قذر يعلوه الذباب لينقي ما عليه وخلق في الانسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر ان يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر فكأن الذباب شرطي (جندي) يلازم اهل القذر ويأمرهم بالنظافة والا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة فسبحان من اودع في كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب مايجهله اكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات

الامثال حتى قال (مثل الذين اتخذوامن دون اللهأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فانكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ما ذا أراد الله بهذا مثلاً) ثم بين ان الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال في آية اخرى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين) فأفاد بهذه الآية انه لا يفهم تلك الحكم الا اصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرين في ملكوت السموات والارض الذين عبر عنهم بالعالمين بكسر اللام هذا ومن عجيب الحكم انه عز وجل جعل صغارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلأ وجه الارض منها فليس في ملكه ذرة الا وفيها من الحكم ما لا يحصى واعجب من هذا ان كل ما جعل سبباً لهلاك حيوان جعل لحمه سبباً لدفع ذلك السم فان الاطباء الاقدمين قالوا ان في لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فادخلوا لحمها في الترياق والتجربة تشهد ان من

لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها في الحال. ثم ان هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئاً كالحيات والعقارب ومنها مايدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل فتأملي تلك الافعال العجيبة واعلمي ان هذا العالم كله حكم ومصالح وما يعقلها الا العالمون فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة وظهر لخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة فان من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدر في خلده ان لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار واصفاء الجو من العفونات فهي من المعينات على مآكلنا وبقاء حياتنا وان من أجل الحكم والطفها وادقها اكل الحيوانات بعضها بعضاً فكم في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء ثم هبت الرياح الى ما جاورها من البلاد وعم الخراب ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميري في حياة الحيوان الكبرى ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والافعى تصيد العصفور فتأكله

والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها اه على ان في ذلك فضلاً عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة فلو ترك بلا اكل لتعطلت حكمته اذ ليس في الملك ما تضيع حكمته البتة ففيه دفع مضار وجلب منافع

الفصل الرابع عشر

(في حكمة اكل الحيوانات بعضها بعضاً)

(وان خلاف هذا فساد النظام)

فقالت ياسيدي فيما ذكرت تبصرة وذكرى للاستدلال على تمام حكمة الصانع القادر الا ان ما نشاهده من الآلام التي تعتري الحيوان عند افتراس قويه لضعيفه تقشعر منه الأبدان وتدع العقل حيران في بيداء الفكر فقال لها ياسبحان الله ما خضت في عباب موضوع الا واحببت ان تستوفيه فهاك واصغى لما أقول : اعلمي يا ذكية العقل وربة الفكر

ان الحيوان كافة قد ركب الله فيه قوة الاحساس وجعلها شاملة لاجزاء جسمه الظاهرة والباطنة كما هو موضح في محله الا بعض اعضاء باطنية وهذه الحاسة اعظم نعمة على الحيوان اذ لولاها ماتباعد عن النيران المحرقة والآلام الموبقة والموارد والاخطار المحدقة القاتلة فلم يبال بقطع الرجل وكسر الجناح وفقوء العين وذهاب السمع ولأصبح عاطلاً من آلات الحياة بل ربما قضى عليه وهو لا يبدى حراكاً ولا يستطيع فكاكاً فسبحانه من اله تقدس وتعالى جل جلاله وعز كماله ولذلك كانت هذه الحاسة أعم من غيرها الا ترى الى السمع والبصر والذوق والشم فان كلاً منها في موضع يخصه ويناسبه ولم يعم بخلاف هذه فانها عمت الجسم كله وشرحها وتفاصيلها يعلم في محله من كتب الحكمة

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول قد علمنا ان الحس في الحيوان ضروري لبقائه بحيث لولاه ما بقى له عين ولا أثر وكما ان تلك الحاسة ضرورية فآجال الحيوان لا بد منها لنظام الكون وعمارة الارض اذ لو بقى كل حيوان ولدلضاقت الارض في زمان قليل وتعسرت معايشه فلننظر الى نوع واحد

منها وهو الانسان فانه لو بقي كل مولود من آدم الى الآ ن
لـكان على القـدم الف قدم وكانت الحياة أشد ألم فمـا بالك
بغيره من أمم الحيوانات الاخرى التي تربو عن العدّ والحصر
فلا بد من آجال تنتهي بهـا حياتها وتلك الآ جال لا يعلمها الا
مدبرها وصانعها وهو الذي أخفاها عن كل حي منهـا لتبقى
آمالها وتحفظ النظام وعمارة الـكون ثم ان تلك الآ جال المقدرة
والاعمار المحدودة عند الخالق تعالى اما بهلاك طبيعي اوافتراس
او اقتناص ولعمرك انه لافرق بين ان تختطفه يد المنون وتذيقه
انواع الهون و بين ان يفترسه حيوان فيغدو به وهو شبعان

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الاسباب والموت واحد

أما الآ لام فلا بد منهـا على كلتا الحالتين غـير انها في
القسرى دفعيـة وقتية وفي الطبيعي بطيئة تدريجيـة ولعلها في
القسرى منعـدمة الا ترين من كان في حرب فانه قد يكسر
عضوه وهو لا يشعر ونفاذ المقدور على الاحياء خـير من
انتظارهم البأساء وعلى كل حال يغتفر الالم اليسـير في جانب
ذلك النفع العظيم واخف الامرين متبـع فالحـكمة تقتضي

تقديم اخف الضررين بل ما خلق في الكون آلام الا لحكمة باهرة لا يعقلها الا المتفكرون الذين صرفت أذهانهم عن سفاسف الامور بل الآلام والمصائب كثيراً ما تفيد الانسان كمالات وفضائل تهذبه وتهديه وتبصره فكم رأينا مريضاً يبث شكواه الى عدوه ويشرح له مرضه فكأن المرض صفى نفسه من شوائب الغل والحسد وذلك هو المقصود بجميع الشرائع السماوية ولاجلها صنفت الكتب ودونت الدواوين . تأملي في قوله عز وجل حكاية عن سيدنا ابراهيم (يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) فما أدق هذا التعبير حيث جعل العذاب من الرحمن وذلك يشير بطرف خفي الى ما ذكرته ولقد رأيت في كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي انه ورد في الخبر ان الله تعالى خلق جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده الى الجنة وفي خبر آخر ان الله تعالى يقول انما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ولم اخلقهم لاربح عليهم وقال بعض العارفين والله ما احب ان يجعل حسابي يوم القيامة لابوي لاني اعلم ان الله ارحم بي منهما وفي الحديث (سبقت رحمتي غضبي)

ولقـد غفـل الناس عن معرفة الحقائق بمتاع قليـل ذاهب فالاعين مفتحـة ولـكن اين ابصارها والآذان سليمة ولـكن لا تسمع فقد عميت الابصار وصمت الآذان وغفل الانسان واصبح كل منا في تيهاء معايشه حيران لا يدرى ما يبدى وما يعيد فان ابصر فلفرجه وبطنه وان سمع فلوساوسـه وجهله هدانا الله الى سواء الصراط وجملنا بحقائق العلوم من المنطوق والمفهوم .

الفصل الخامس عشر

(في ذكر الحيوان المسمى هيدار وفي كلام عام على)
(جميع اصناف الحيوان وذكر اصغرها)
(وهي الحيوانات المكرسكوبية)

ثم دخـل يوماً مجلس المناظرة هو واخوتهـا على حسب العادة فوجدها تقرأ في كتاب الرسالة الحميـدية وراء السـتر منشرحة الصدر فارغة البال مظهرة التعجب فقال مِمَّ تتعجبين؟ فقالت من حيوان يسمى الهيدار صـغير جداً اذا قطع ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وترك بعض ايام صارت كل قطعة حيواناً تاماً كأصلها فينبت للرأس وسطوذنب وللذنب وسط

ورأس وللوسط رأس وذنب والرأس تصير كذلك قبل سواها فمن هذا عجبي فقال لها هذا من الدلائل الشاهدة بان صانع هذا الحيوان لا يحكم عليه في صنعه ناموس ولا تلجئه ضرورة وكم في الحيوان من العجب العجاب تبصرة وذكرى لأُولى الالباب فمنه ذو الصوت الرخيم والنغم الرقيق يهيج بحسنه الالباب ويستثير الصبوة ويستفز الحليم ويأخذ بالالباب فقد اخبرني حاكم من حكام السودان ان هناك وادياً يقال له وادى الريحان فيه من كل فاكهة زوجان منظره جميل وليس له في اشجاره مثيل قد كثرت فيه الحيوانات البرية والطيور على اختلاف انواعها ومنها طير رخيم الصوت كأنه آلة موسيقية كالعود في غاية الجمال . قال فأمرت جندياً ان يأتيني به وكانا زوجين (ذكراً وانثى) يتناوبان الغناء في تلك الرياض الغناء فاحضر احدهما ولم يقدر على الاخر فلما اتي بين يدى ذلك الاسير ترك غناءه واظهر غناءه والتزم الصمت في كل وقت حزناً على الالف فبحث العسكر عن اليفه فوجدوه تجرع غصص الموت وفارق الحياة أسفاً وحزناً وحين رجعوا وجدوا الثاني رهين رمسه وكانا في حال حياتهما يتناشدان باصواتهما الجميلة وهي تحكي

العود الصناعي في حركاته وسكناته لكنهما أفضل منه وأعلى وأجمل وأبهى كيف لا وهذا خارج عن شوق طبيعي وروح آنسة بالحبيب مولعة بالطرب فأين المؤجرة من الثكلى وأين الثريا من الثرى وأين الجماد من الحيوان والفارغ من العاشق الولهان ومنه ذو الصوت المنكر الذي يصم الآذان ويصدع الانسان كصوت الاتان الذي قيل فيه في القرآن (إن انكر الاصوات لصوت الحمير) ومن الحيوان الجميل الذي يستوقف الطرف كالزرافة والطاووس وبعض الديكة وابدع الجميع جمالاً وأحسنه مثالاً الحسان من نوع الانسان من الحور والولدان فهناك دهشة النظر وحيرة الفكر والاخذ بمجامع القلوب والسطوة على الباب ذوي الاحلام والسلطة على أبهة الجبابرة والحكام وكم لهج مداحه بالخدود النواضر والعيون النواعس والملاحة والحور وابتسام الثغر وشنبه بل فضلوا جماله على جمال العلويات ذات الانوار الساطعات بل ربما وسموه بانه يعلمها كما قيل :

كأن وميض البرق رام تعلماً ... لمعنى يزين الثغر اذ يتبسم
وخاف من النسيان صار يعيده ... مراراً وهذا شأن من يتعلم

ومن الحيوان ما تقشعر منه الجلود وترجف القلوب كالثعبان والخنزير ومنه ما بلغ غاية عظيمة في الكبر كالفيل الذي علو الكبير منه اثنا عشر قدماً ومنه الصغير جداً حتى لا يرى الا بالآلة المعظمة (الميكروسكوب) حتى ان ألوفاً منه تسبح في قطرة واحدة من الماء دون ان تزدحم أو تتصادم وهي أجناس وأنواع وصنوف وصور مختلفات فمنها الحيوانات الفصفورية نسبة الى الفصفور لانها تلمع كلمعانه فيجتمع خلق كثير منها لا يحصى على وجه البحر فتلمع وتتوقد كسيل من نار وكلها لا تنام ليلاً ولا نهاراً ولم ترقط في حال سكون وبالبحث وجد ان مائة وستين مليوناً [1] من صغارها لم تبلغ ثقل حبة القمح الواحدة وان في قطرة واحدة من الماء مايزيد عن كل اهل الارض من البشر ثم ان الواحدة منها قد تلد الالوف وألوف الالوف في زمن قصير ولها معرفة تامة بموارد معايشها ومصادرها وميل الى ما يلائم ونفور عما لا يلائم ونباهة تتقي بها الاخطار ولا يصدم احدها صاحبه او يزاحمه مع ان ألوفاً وملايين تسبح في قطرة واحدة من الماء كما تقدم وهي

---

(١) هذه المقادير كلها من الرسالة الحميدية فليراجعها من أراد

سريعـة الحركة جداً والغاية في صغرها ما قيل ان نوعاً منها لا تزيد الواحدة منه على جزء من ألفي جزء من عرض الشعرة ولكل منها اعضاء خادمة لبقاء حياتها كبقية الحيوان (فتبارك الله أحسن الخالقين) ومن هذا نفهم الظاهرة التي يخبر بها المسافرون في البحر الاحمر وهي ان احدهم اذا توضأ ليلاً رأى ذقنه كأنها تتوقد ناراً وتشتعل لهباً وما ذلك الا لوجود تلك الحيوانات الفصفورية العائمة على وجه الماء فسبحان من يعلم حركات تلك الحيوانات وسكناتها ومستقرها ومستودعها ومن ألهمها معاشها وفصل اعضاءها ووظائفها وتناسلها وما لها من هاضمة وماسكة ودافعة وحدقة وسمع ، ودبَّر بحكمته اجتماعها وافتراقها ثم هل في باطنها حيوانات ادق منها والطف كما في باطن الانسان والحيوان فجل الذي اتقن هذه الصنعة واحكمها لا إله الا هو العزيز الحكيم . فان مصنوعاته لم نتصل لمعرفة عشر معشار ادنى جزء منها فكيف باجزاء وكيف بالارض وما عليها من نبات وحيوان وجبال وانهار وما بين السماء والارض من مطر ورعد وبرق وسحاب وصواعق ورياح وما في السماء من شموس واقمار وسيارات وثوابت وذوات

اذناب وغير ذلك مما لا يحصى ومما خفي علينا علمه فانظر كيف احاط علمه بذلك كله قال الشاعر:

يرى حركات النمل في ظلم الدجى
ولم يخف اعلان عليه واسرار
ويحصى عديد النمل والقطر والحصى
وما اشتملت نجد عليه واغوار
اذا همّ وهم الفكر ادراك ذاته
تعارض اوهام عليه وافكار
وكيف يحيط الكيف ادراك حده
وليس له في الكيف حد ومقدار

وما أحسن ما أوصى به الزمخشري ان يكتب على قبره وهو:

يامن يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النُّحَّلِ
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمان الاول

وكما اختلف الحيوان صغراً وكبراً اختلف في مدد اعماره تخالفاً غريباً فعاش الجرىء منه اكثر من الجبان والمائي والبري اكثر من الهوائي الا الرخمة والنسر والببغاء والغراب فانها

عاشت قدر ما يعيش الانسان وقد اشتهر ان النسر الذهبي يعيش مائتي سنة والسلحفاة مائتين وعشرين سنة والفيل اكثر من مائة . ولعمري ان في طول حياة الجريء من الحيوان وقصر حياة الجبان منها لدلالة على تفرد ذلك الصانع الحكيم بالاحياء والاماتة فان الجبان لم ينفعه حرصه على حياته كما ان الجريء مثل الاسد لم يضره اقدامه ولم ينقص من عمره فسبحان المتعزز بالكبرياء والقهر والعظمة المحتجب بجبروته عن ان تدرك صنعته

فسبحان من تعنو الوجوه لوجهه
ويلقاه رهن الذل من هو جبار
عظيم يهون الاعظمون لعزه
شديد القوى كاف لذي القهر قهار

فسبحانك اللهم ظهرت قدرتك وعظمتك في ملكك وملكوتك وتدبيرك العجيب الاحكام سخرت الحيوان وسهلت له سبيل المنافع والمعايش وما أحسن ما قيل

تجلت لوحدانية الحق أنوار فدلت على ان الجحود هو العار

ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التي ليست على

نمط واحد فان من الحيوانات ما يتم جنينه في داخل جسده
ثم يلده كالحيوانات اللابنه ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم
يتخلق الجنين فيها مهيئاً له داخلها جميع مايلزم من الغذاء وذلك
كالطير و بعض الحيات ومن ذلك كيفيات الالقاح وتغذية
الجنين فانها كيفيات متباينة تؤدى الى مقصود واحد فبعض
الحيوان لا يتم تلقيح ذكره الا اذا وصل المني في باطن الانثى
ولو تعرض للهواء فسد كالانسان وكثير من الحيوان ومنه مايلقي
منيه على بيض انثاه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء ومنه
ما سفاده في وقت معين ومنه ما لا تعيين لوقته ومنه يعلو انثاه
عند السفاد ومنه ما يدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها
ويحاكها حتى تلقي بيضها وهو يلقي منيه على تلك البيوض
فيلقحها وذلك كبعض الاسماك ومنها مايغذي صغاره بلبن اعده
الخالق الحكيم الرحمن الرحيم في ثدييه او أثديته التي تكون
على عدد أولاده في الغالب ومنه ما يزق أولاده زقاً كالحمام
ومنه ما يسعى باولاده ويدلها على اقواتها كالدجاج ومنه
ما يشترك في تربية اولاده الذكر والانثى وذلك عند ما يكون
أولاده غير قادرة على السعي من اول ولادتها وذلك كالعصافير

والحمام والانسان لان انفراد الواحد بالتربيــة مع سعيه على رزقه ايضاً يكلفه فوق طاقته ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ما تكون أولاده قادرة على السعي وذلك كالدجاج والحجل فاذا تأمل العاقل في هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لارادته متجهة لنظام الكون متعاونة على اكماله فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطاً تاماً بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بني آدم وادراك الحيوانات وما بينها من المحبة والالفة والشوق فالجذب العام كمحبة عمومية بين اجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين اجزاء صغيرة من هذا الكون فكل ما تراه في الحقيقة انما يسعى للنظام التام وهو يظن انه يسعى لمصلحته الخاصة

اورى بسعدي والرباب وزينب * وأنت الذي تعني وأنت المؤمل

ويعجبني قول بعض أهل السنة للمعتزلي في مجلس المناظرة حين قال : أرأيت ان منعني الهدى وقضى عليّ بالردى أأحسن اليّ أم أساء ؟ يا هذا ان منعك ما هو لك فقد اساء وان منعك ما هو له فالملك له يتصرف فيــه كيف شاء ، ولذلك قال الله عز وجل (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)

الفصل السادس عشر

(في الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله)

(بادلة عقلية قريبة غريبة)

ثم قال ابراهيم قد تكلمنا في مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل وهي في الحقيقة ادلة عقلية عند من له فطنة وفراسة فهل عندك من دليل على الآخرة غير ما يذكرونه في كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعاً للعقول فانا كثيراً ما اسمع قولهم في كتب التوحيد ان دليل الآخرة سمعي أي اننا نأخذه من الادلة الشرعية لا من العقل . قالت الفتاة انا لا يمكنني ان أقول غير ما سطر في كتب التوحيد . فقال ابراهيم انا قد خطر لي دليل لا يفهمه إلا أولو الالباب والراسخون في العلوم فاشرق وجه الفتاة وقالت هات ماعندك.

فقال من نظر بعين البصيرة فيما أودع في هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية في العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وادراكاتها وعقولها حكم بالبداهة انها جارية على نواميس حقة وحساب منتظم دقيق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة

في مداراتها على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل ثم لننقل نظرنا الى السفليات نجدها حذت حذو العلويات في النسق والترتيب والنظام فاي حيوان تعدى طوره وأي نبات تجاوز سنته ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الاعلى فلا ترى انساناً على وجه الارض الا واستحسن العدل واستقبح الجور ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الانسان بل المستنبطين لها في الحقيقة من الشرائع الالهية يحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الغربية امامنا كم ينفقون الاموال ويرسلون الى الجهات المتباعدة من يبحث على الجاني ولو انفقوا ما انفقوا وكل ذلك لميل العقول الى العدل وان يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وما لنا ولارباب القوانين والسياسة فلننظر الى سيد العائلة فانه يعاقب على ذنوب اهل منزله ويجازي كلاً بما فعل بل أي انسان ولو من أضعف الناس عقلاً واقلهم ادراكاً رأى رجلاً يضرب آخر فانه لا يتمالك نفسه ان يأخذ بناصر الضعيف (فطرة الله التي فطر الناس عليها) دعينا من الانسان وانظري الحيوانات فانه مركوز في جبلتها

العدل ايضاً لما شوهد كثيرًا فيها بل كثيرًا ما علم انها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد فثبت ان هذه الفطرة منبثة في كل حي على وجه البسيطة بل هي من الموازين التي قامت بها السموات والارض واستقر بها كل موجود ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والانسان وعلوم الاحكام والمنطق وعلوم الادب كاللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وغيرها ان هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام في كل شيء من الموجودات وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين في هذا العالم وتجري على يد الانسان ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لا تحكم الا على الظواهر ولا يمكن وصولها الى الحقائق بوجه ما فهي أشبه شيء بالجمال الظاهري فانه يدل في الغالب على الجمال الباطني ومن غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الاحكام بالقوانين الشرعية او الوضعية تابعة لاقوال الشهود او القرائن ودلالتها ظاهرية فقط وقد قدمنا ان كل شيء في العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل فلا بد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها في وقت آخر حتى يكون

ميزانها على حسب الموازين الاخرى الصادقة من العلويات والسفليات وايضاً قد تقرر انه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءا فهكذا تنقلب هذه الاعمال في الآخرة نعيماً او عذاباً أليماً فتذكروا يا أولى الالباب فلم تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم او الذين أحسنوا في هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر :

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الشر ابان

وقول الآخر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر:

الخير ابقى وان طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا ترين ان زارع الورد لا يجني الشوك وزارع النخل لا يجني الذرة وعلى هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التي تصدر

منها حسناً وقبحاً فمن اكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الانسان يؤثر على اخلاقه شرفاً وضعة فعلمنا ان هذه القاعدة مطردة فى المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ما قدمنا جزم يقيناً انه لابد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت ان كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت افعال الانسان لم توزن الا وزناً ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقاً بميزان عدل لايخس شعيرة وكيف ينتقم رئيس الاسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن الى المحسن ولا يفعل ذلك رب الارباب (أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون) (أمْ حسبَ الذين اجترَحوا السيئاتِ ان نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محْياهم ومماتُهم ساءَ ما يحكمون) ثم ان كل ما صرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهي قوله تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) قد فسر بالعدل والتسوية كما في الخازن

والنسفي (وما يدريك لعل الساعة قريب) فليتأمل العقلاء
وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله انزل الكتاب بالحق
والميزان وليلاحظوا ما ذكرناه في هذه المقالة يظهر وجه هذا
التعقيب العجيب ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه (يَستعجل
بها الذين لا يُؤمنون بها والذين آمنوا مُشفِقون منها ويَعلَمون
انها الحقُّ ألاَ ان الذين يُمارُون في الساعة) يخاصمون فيها او
يشكون (لفي ضلال بعيد) عن الحق لعدم فطنتهم وادراكهم
موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم
ما أنزل في الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لما يرى في
العوالم بالعقل والنظر الصحيح على ان لنا وجهاً آخر في ذلك
وقد عرضته سابقاً على اكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جداً
وهو ان كل بني آدم على أي دين نراهم يحبون تخليد اسمائهم
اما نقشاً على الاحجار أو في الكتب المؤلفة او على السنة الناس
وأيضاً يحبون الخلود وطول الاعمار ولا نرى احداً يحب الفناء
الا من شذ شذوذاً بيناً ثم ذلك الشذوذ لا يدوم وايضاً نرى
جميع اهل الارض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على
ارواحهم واذا نظرنا الى هذه الفطر الثلاث المنغرسة في نفوس

البشر دلتنا دلالة واضحة ان لنا بقاء بعد موتنا اذ جميع فطرنا التي فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة البتة ولعمري لا يفهم ما قلناه الا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر صادقة كما يعرفه اهل العلم فكذلك هذه الفطرة لحبنا البقاء وتخليدنا اسماءنا دليل على ان لنا بقاء بعد الموت وزيارة الاحياء للاموات وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود ارواح الاموات والا فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الاموات ولنا وجه آخر وهو اننا لا نقنع في هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر في نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات في العالم المشاهد لها بدليل انها لا تقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت اليه واحبت اعلى منه وما سمعنا بأنَّ احداً قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشعار النفوس جميعها بان لها لذة

اعلى من هذه فلا بد ان تكون في عالم آخر الذي يطابق وصفه ما احبته النفوس وحنت اليه

وهذه الادله كلها لم أرها في كتاب وانما هي سوانح (١) ويقرب من هذا ان بني آدم يميلون الى عبادة الخالق في كل صقع من اصقاع الارض حتى اهل جزائر المحيط الهادي الذين تباعدت ديارهم عن المتمدينين وانما اختلافهم في تعيينه فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالاً ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولا شك ان هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم .فأعجب الفتاة ما قال ابراهيم وقالت ماسمعت أدلةاوضحوأ بين من هذه

---

(١) اطلعت بعد هذا على استدلال افلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمراً ثابتاً وهي صورنا الدائمه في عالم آخر ثم اطلعت على بقية هذهالوجوه في كلام الحكماءبعد تأليفهذا الكتاب بسنتين فحمدت الله حمداً كثيراً اه المؤلف



الفصل السابع عشر

(في مناظرات عجيبة ومحاورات غريبة من مبتكرات)

(هذا الكتاب جرت بينهما)

(اعجوبة الزمان وحكمة الرحمن في خلق الانسان)

ثم صال كل منهما صولة وجال في ميدان العلم جولة اذ العلم انس العلماء وبهجة الحكماء فسأل ابراهيم جمال عن اعاجيب الزمان من المباني الاثرية والعجائب الشرقية والغربية وعن ابدع ما رأته وأجمل ما بان بناه وأحسن الزخارف وأبهر اللطائف فقالت لعله الايوان لكسرى انوشروان او قصر النعمان او الاهرام المصرية او برج ايفل الافرنسية او منارة بيزه المائلة المحنية في البلاد التليانية فقال ليست هذه بالاعاجيب ولا هي مقصد الفطن اللبيب فقالت جمال لعلك يا ابراهيم تريد صرح نمرود أو قصر بلقيس أو صرح هامان أو ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فمكث ابراهيم غير بعيد وقال: أحطت بما لم تحيطي به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. فقالت جمال لم يبق الا المحال يا ايها المختال . فقال ابراهيم سمعاً لما اقول سمعاً لاعجب المباني وضعاً واتقنها صنعاً ولكني الغز

لغزاً ولا تسمعين مني الا ركزاً ان أعجب المباني قصر حسن زين قد ارتفع على عمودين مازأت عيني مثله في البهجة والرواء واتقان البناء والحسن والجمال والكمال والاعتدال فلا هو من طين ولا من حجر ولا قصب ولا مدر ولا شعر ولا وبر ولا مما يغرس في الغبراء ولا مما ينزل من السماء ولا من فضة او ذهب ولما كنت رأيته قلت في نفسي لعله ذهب حسي اذ دهشت مما رأيت فظاهره بديع وحليه مزدان باجمل ترصيع ومما هالني منظره وادهشني مخبره انهار تجري على جوانبه هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج وهذا هلاميّ القوام وهذا يسيغ الطعام وحوله المزارع الخضرة باشكالها البهجة النضرة تأخذ بمجامع القلوب سناء واشراقاً وتبتهج نضرتها جمالاً وايراقاً وتزهو للناظرين حسناً وابراقاً ثم نظرت طباقه فاذا هي ثلاث طبقات بنور الكهرباء مزدانات وفيها سلوك لاتصال الاخبار من الملك الى الرعية ومن الرعية الى الملك فاذا حدث حادث من أي حدب عرفه الملك في لمح البصر أو هو أقرب ولولا خوف اللطيف الخبير لقلت انه على كل شيء قدير وهاك تفصيل طبقاته لتعرفي كنه صفاته اما

طبقته العليا فهي مقر الملك ووزرائه وعيونه وترجمانه وفي تلك الطبقة باب القصر فلا يصدر صادر ولا يرد وارد الا اذا أذن الملك وقد رأيت بواباً شديد الحذر كلما أمره الملك ائتمر وعيونه وأعوانه كثيرون لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذه الطبقة متينة البناء في سمت السماء تناسب شرف الملك وعلو قدره وخطره وجاهه والحراس حولها سامعون مطيعون من كل حادث حذرون ويقلها من اسفلها عمود فوق الطبقة الوسطى وهي اوسع من الاولى ومن ابدع مارأيته فيها مخزن عمومي يمد سائر طبقات القصر بالميرة من الاغذية اللطيفة وفواكه مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وسدر مخضود وطلح منضود وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة فهالني ذلك المكان وكثرة السكان وتمام الاتقان وقلت ليس في الامكان ابدع مما كان ومن العجيب ان تلك الاطعمة كلها مطبوخة في أوانيها مهيأة لمتعاطيها وكل من السكان لا يأخذ من الطعام الا بقدر معلوم وهذه الطبقة الوسطى فيها باب يوصل الى الطبقة السفلى فدخلت منه فرأيت عالماً كبيراً فيه تلك الاقوات المذكورة من جميع الاصناف وهي في ايدى

العملة يطبخونها ويميزون الخبيث من الطيب ويرفعون خالص اللباب الى الطبقة الوسطى لتوزيعه على السكان كما قدمنا في البيان واما الخبيث فيركمونه جميعاً فينزلونه من طريقين اسفلين احدهما من خلف لما غلظ من الحثالة والاخر من الامام لما رق من النخالة ومن الغريب ان هؤلاء العملة يجدون في الليل والنهار لا ينامون وهم عن العمل لا يفترون ولا يسأمون وهذه الطبقة على العمودين اللذين ينتقلان من مكان الى مكان كإِرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد والاعجب والاغرب ان هذا القصر مع انتقاله حوله عملة اقوياء وترينهم يزرعون ويسقون وهم من خشية الملك مشفقون ويفعلون ما يؤمرون. فقال خبريني عن هذا البنيان فقد حارت فيه الاذهان فاجابته الفتاة بالعقل بعد التأمل والتفكير في كل صغير وكبير وقالت ليس ذلك هو الصرح الممرد من قوارير ولا مما يبني من الذهب بالقناطير الا ان هذا البنيان هو الانسان فقد خلق في احسن تقويم وابهج شكل حديث وقديم فانهاره السوائل ما يسيل من منافذه فريقه حلو ودمعه ملح وماء الاذن مر ومخاطه هلامي القوام مستقذر عند الخواص والعوام ومزارعه

شعوره المرسلات عرفاً والمنشرات نشراً ترسل بين يدى المودة بشرى واما نور الكهرباء والاسلاك التلغرافية فهي كالحياة السارية في الاعصاب المنتشرة في انحاء الجسم فمنها ما ياتى باخبار الاحساس مما يحدث بالخارج من الآلام والآفات واللذات ومنها ما يحرك الاعضاء تارة للطلب واخرى للهرب بامر الروح الذي مركزه الدماغ فهو اذن مركز الاحساس والحركة فلا احساس الا وهو مورده ولا حركة الا وهو مصدرها والطبقة العليا هي الرأس وفيها العقل وامامها الحواس وهي السمع والبصر والشم والذوق وهي تقابل اعوان الملك وعيونه (جواسيسه) وحاسة اللمس افضل الجميع لانها تعم جميع البدن للاخبار بما يلاصقه والحواس الباقية تأتي باخبار البعيد والقريب فما ابدع هذه الغرائب وحاسة اللمس لا يخلو منها حيوان حتى الديدان الصغيرة والعلق الذى في طبقات الثرى فهي الدليل على حياة كل حي اما الحواس الاربعة الباقية فقد يخلو منها بعض الحيوان وهي كالطلائع والحراس ورواد الماء وحاسة اللمس وحدها كخفراء المدينة وشرطيها الذين هم داخل اسوارها لا يتجاوزونها اما تلك الاربع فكل منها قد اختص بعالم من

العوالم يأتي باخباره فالسمع موكل بعالم الاصوات والبصر بعالم الالوان والشم بعالم المشمومات والذوق بعالم المطعومات واما اللمس فاختص بعالم الملموسات التى تلاصقه واما العمود الذي تحت تلك الطبقة فهى الرقبة واما الطبقة الوسطي فهى الصدر وفيه الرئتان فهما معدتان لاصلاح الدم ليدخل له خالص الهواء وينفي الخبث عنه كما ينفي الكير خبث الحديد والقلب يوزعه على جميع اجزاء الجسم بقدر معلوم فللغليظ غليظ وللرقيق رقيق وللكبير كبير وللصغير قليل فكل من تلك الاعضاء له مقام معلوم بحساب منظوم على حسب النظامات الطبيعية واما الطبقة السفلى فهي البطن وما حوت من المعدة والامعاء ففيها الاطعمة النازلة من الفم وهناك تطبخ فما رق وراق من خالص اللباب ذهب الى الكبد فاستحال دماً عبيطاً ومنه يصل الى القلب فيمكث في الجسم واما ما لا ينفع الناس في أجسامهم فانه ينزل من السبيلين (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) واما العمودان المنتقلان فهما الرجلان واما العملة فهما اليدان

واعلم ياابراهيم ان في هذا الترتيب سراً عجيباً ونظاماً غريباً

من فهم كنهه اشرقت في قلبه أنوار الحكمة وذلك ان لكل دولة ثلاث طبقات : عليا وهم أرباب التفكر والعقل والعلوم والمعارف والتدبير وهم القائمون بادارتها المدبرون لامورها كالملوك والوزراء وأرباب الدولة ومن نحا نحوهم وهؤلاء لهم في الدولة المساكن العليا والقدح المعلى ويقابلهم في الانسان عقله وقواه التي في دماغه وحواسه وهي لاشك في اعلى الانسان

ووسطى وهم العسكر المحاربون المدبرون (بفتح الباء) باوامر ذوي العقول ويقابلهم في الانسان الدم في القلب وذلك ان الانسان متى احس بما يمس احساسه غلي الدم وفار كما تغلي القدر على النار واستشاط لاخذ الثار وحرك الاعضاء لدفع العار ومن العجيب ان الاعضاء ان دعيت الى الطلب اجابت او للهرب اجادت او للمدافعة اماتت

وسفلي وهم الفلاحون والعملة وهم خدم للطائفتين ومؤتمرون باوامر القسمين يخدمون الامراء والعساكر ونظيرهم في الانسان ما في البطن من القوى المعدة لطبخ الاطعمة بثيران المعدة وهضمها واصلاحها بالسوائل المعدة لنضجها تجري

من جوانبها مع اختـلاف التركيب والنظام الغريب مع ان هذه السوائل التي اختلف تركيبها كالآلات البخارية لو كانت في آلة من الآلات التي يصنعها الانسان لاختلت

وبالجملة فهذه الآلات في البطن تميز الخبيث من الطيب وتجعل الخبيث بعضـه على بعض فتركمه جمعاً فتجعله في اسفل سافلين وهنا عـبرة للمتنبهين وتبصرة للمتفكرين وذلك ان هذا الوضع يشير بطرف خفي الى ان من انهمكوا في الشهوات واللذات اسفل العالمين وان ذوي العقول السامية اعلى القسمين واهل البأس والشدة بين بين فانظر كيف دل وضع المكان على المكانة والشرف فيا عجباً لهذا الوضع العجيب والاتقان الغريب الذي هو أجمل ما خلق الله فقد جمع في جسمه الصغير جمال العالم الكبير فكانت روحه اشرف واجمل ولهذا نسب بنيان جسمه لله في حديث رواه ابو منصور الثعالبي في كتابه المسمى بالاعجاز والايجاز ونصه (ملعون من هدم بنيان الله) يعني من قتل نفساً اه وجعلت روحه عرش الله كما قيـل قلب المؤمن عرش الرحمن فانظر كيف جعل جسمه بنياناً وقلبـه عرشاً فما ادق هذه الحكم والى ذلك يشير بطرف خفي قوله تعالى (أفمن

أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) فلما سمع ابراهيم قول جمال بهذا البيان عن ذلك البنيان قال ما شاء الله كان وصار في الامكان (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) ثم قالت جمال كيف تبقى الروح بعد الموت مع اننا نرى الجسم متفرق الاجزاء قد اكله الدود وتناثر لحمه و بليت محاسنه وذهب رونقه على اننا نرى الاطباء يخدرون المرضى فلا يحسون بألم ومعلوم ان الموت اشد من التخدير بتلك الاجزاء الطبيــة فاذا كان بالتخدير لا يحس بالالم ولا بالسرور فما بالك بالموت فقال ابراهيم أيها الفتاة ان للروح بقاء بعــد الموت وما مثــل الروح في الجسم الا كمثل الماء في الاناء او السراج في الزجاجة التي كأنها كوكب دري فكما ان الماء اذا كان في الاناء اعطى صفاته من حيث الشكل واللون فيحمر لاحمراره ويصفر لاصفراره ويخضر لاخضراره كذلك الروح ما دامت في الجسم تعطي حكمه وتتأثر بتأثره فتتخدر بالتخدير وتضعف بالضعف حتى ان المريض نراه سيء الخلق لانحراف مزاجه وضعف قواه البدنية والخلق من صفات الروح لا الجسم فهاهنا

تأثرت الروح بالجسم وهكذا حال السكران واقوى من ذلك كله المادة التي تشمم للمريض وهي الكلوروفرم فانها خلاصة مواد متخمرة وبعبارة أخرى خلاصة خمر فلا جرم اذا كان تأثيرها اشد وهذا كله لحكم الجسم على الروح كما حكم الزجاج على الماء[١] فيه فأعطى كثيراً من أحكامه وصفاته وكما ان الزجاجة اذا انكسرت رجع الماء الى حاله الاولى فهكذا اذا فارقت الجسم رجعت الى عالمها متحملة بأنوارها او ظلماتها بل مثل الروح في الجسم كمثل المصباح في الزجاجة فاذا لونت الزجاجة بأي لون خرج ضوء الزجاجة على ذلك اللون نفسه من احمر او اخضر او غيرهما فاذا كسرت الزجاجة بقي النور بشكله الاصلي فالروح اذا فارقت الجسم رجعت الى عالمها فاما الى جنة واما الى نار

اما كيفية النعيم والعذاب للميت فذلك من عالم غير عالمنا لايمكننا الحكم عليه بشيء من الاحكام فان أصاب الميت نار

---

(١) كنت سئلت عن هذا السؤال فاجبت بالجوابين معاً ثم بعد ذلك رأيت سقراط أجاب بالجواب الاول بعينه فمثل بالماء وقال كما قلت فالحمد لله الذي علم بالقرآن ما علمه الحكيم بالحكمة اه مؤلف

او عقارب او حيات او استظل في ظلال وتمتع بالحور العين او غير ذلك فهذا يستحيل مشاهدته اذ هو في عالم غير عالمنا فلا نراه الا بعيون تخلق لنا اذا وصلنا اليه ومن العبث المناقض للحكمة الالهية ان نراه بأبصار حياتنا والا وقع الخلط بين العالمين واختلطت عقول الثقلين (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان) وكما ان الوحي كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تراه ابصار الصحابة مع الايمان به كذلك الاموات يعذبون ويرحمون ونحن حولهم باكون لاهون غافلون مصدقون (فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون) (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين) بل كثيراً ماينام أثنان في لحاف واحد ويرى أحدهما بهجة وسروراً والآخر عذاباً وسعيراً ونحن نبصرهم فلا نرى ما رأيا ولا نسمع ما سمعا فهكذا الاموات في قبورهم بل الميت أشد احساساً واقوى ادراكاً واكمل من النائم بل الموت هو الحياة الحقيقية بالنسبة للحياة الدنيا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا)

فنحن الآن نيام فاذا متنا فتلك هي الحياة الحقيقية نرى بواطن العوالم وخفاياها ولنقصر عنان القلم فى هذا المقام فاننا لو استوفينا الـكلام لدق على الافهـام وفى هـذا القدر تبصرة وذكرى لأولي الالباب

الباب الثاني

« في الـكلام على العلويات . وفيه أربعة فصول »

الفصل الاول

(في عجائب السموات)

ثم قالت يا سيدي شاقني حسن حديثك الى ان تسمعني طرفاً من عجائب السموات والارض وما خلق الله من شيء والجو والسحاب والانهار والجبال لقوله عز وجل (أوَلم ينظروا فى ملكوت السمواتِ والارض وما خلق الله من شيء) وقوله (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) وكيف يكون التفكر فيها والاعتبار بها فقال وجوه الاعتبار كثيرة وجمـال الصـنعة الالهية يدهش العقول ويأخذ بالابصار فهذه النجوم الزاهرة

تتلألأ نورًا وتشرق بهجة معربة عن جمال بارئها كيف لا وما الصنعة الا من آثار صانعها وما النجوم وجمالها الا بارقة من جماله ولامعة من لوامع انواره فمن نظر السماء وهي خالية من السحاب شاهد دراري مرصعة محكمة الوضع على اشكال مختلفة من هيئة مثلث ومربع ومسدس وخط مستقيم وآخر منكسر ومستدير تسير سيراً حثيثاً في منازلها لا يعتورها ملل ولا تداخلها علل وهي سائرة في بروجها تارة صاعدة وأخرى هابطة وطوراً في رجوع وطوراً في استقامة على حساب بديع قد ضبط في كتب المقومين وبذلك نفهم اجمال قوله عز وجل (الشمس والقمر بحسبان) وقوله سبحانه (ان الله سريع الحساب) وانه كيف احصى ذلك الحساب على اختلاف انواعه وتفرع قوانينه من ابتداء الخليقة الى الآن ثم انظري بعد ذلك في اشراق انوارها الساطعة على سطح الكرة الارضية في مشارق الارض ومغاربها ومنها الاحمر والاصفر والابيض وكلها قد تحلت بنضرة وسناء وبهجة وحسن منظر كما قال الله عز وجل (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين) ثم انظري الى ما بينها من الاختلاف والتباين قرباً وبعداً وكبراً

وصغراً وسرعة و بطئاً الى غير ذلك مما لا يكاد يحصى وهذه
الشمس اعظم جرما من جرم الارض بمليون ومئتين وتسع
وخمسين ألفاً وسبعماية مرة وقد قالوا ان أرضنا كوكب من
الكواكب تضيء على القمر كما يضيء هو عليها كما أوضحه
العلامة بهاء الدين العاملي فقال ما ملخصه ان جرم القمر يقبل
ضوء الشمس لكثافته وينعكس عنه بصقالته فكذلك الارض
تقبل ضوء الشمس لكثافتها وينعكس عنها لصقالتها فان
الارض والماء المحيط بها كرة واحدة ونسبة اليابس الى الماء
قليلة تبلغ ثلاثة اعشارها فلو فرض على القمر سكان لرأوا من
الارض جميع الاشكال التي نراها نحن من القمر انما يكون
ذلك في أوقات على عكس ما نرى نحن في القمر فاذا كان هو
بدراً لنا كانت الارض في المحاق بالنسبة لهم لان وجهها المظلم
صار مقابلاً لهم ووجهها المضيء جهة الشمس اذ الارض اذ
ذاك متوسطة بين القمر والشمس واذا كان لنا خسوف كان
لهم كسوفاً لوقوع ابصارهم داخل مخروط ظل الارض فتحجب
الارض شعاع الشمس عن ابصارهم كما يحجب ظل القمر
ابصارنا عن رؤية الشمس وقت الكسوف وهذا ظاهر لمن

تأمل ادنى تأمل ممن مارسوا علم الهيئة و بالجملة فجميع الاشكال التي نراها في القمر يرى مثلها سكان القمر من أرضنا في أوقات مخالفة لتلك ونور الارض على القمر اكثر من نوره عليها بمقدار اربع عشرة مرة تقريباً

هذا وكما ان في القمر محواً كذلك في نور الارض الساطع على القمر محو مثله الا ترين ان* اليابس منها لا ينعكس عنه النور بالتساوي بخلاف البحر فان النور ينعكس عنه بالمساواة اه ملخصاً منه ومما درسناه في الهيئة الجديدة

ولنرجع الى ما كنا فيه فنقول ان الشمس تبعد عنا بما ينوف عن تسعين مليوناً ميلاً و يصل ضوءها الينا في (٨) دقائق و (١٨) ثانية وضوء نجمة الشعرى اليمانية يصل لنا في (٢٢) سنة والسماك الرامح في (٢٦) والنجمة القطبية في (٥٠) سنة فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وكيف تكون اقدار تلك الكواكب ومن الكواكب ما لا يصل ضوءه الينا الا بعد مئات بل آلاف من السنين وهذه عجائب تدهش الالباب وتحير العقول وتقهرها على الاقرار بالعظمة لخالقها وانه المنفرد بالابداع الخلاق العظيم رب المشرق والمغرب

لا إله إلا هو وياليت شعري اذا كانت الشمس اكبر من الارض بما ينوف عن مليون مرة كما قدمنا وضوءها يصل لنا في (٨) دقائق وكسور فكيف يكون حجم ما يصل ضوءه لنا في آلاف من السنين لعمري ان عظمة تلك الكواكب لا يمكن وصفها ولا تصورها وانما تكون الشمس بالقياس اليها كحبة خردل بالقياس الى الشمس وسياراتها وتوابعها ثم من الكواكب ما يومه وسنته دون يومنا وسنتنا ومنها ما هوا كثر من ذلك بكثير حتى ان سنة زحل (٢٩) سنة من سنينا ، وسنة اورانوس اربع وثمانون سنة ، وسنة نبتون مائة واربعة وستون سنة وكسور وما يعلم ما سنوه اعظم من ذلك الا مبدع هذه العوالم جل وعلا فكم من نجوم لم نعلم حقيقتها قد غابت في تلك المسافات البعيدة (ويخلق ما لا تعلمون) ولعل هناك ما يومه إلف سنة مما نعد او خمسون الف سنة او اكثر او اقل واما هذه السنون فهي بالنسبة لشمسنا ومنها ما هو بطيء السير جداً ومنها ما هو سريعه حتى ان المشتري ليجري ثلاثين الف ميل في الساعة أي سبعة وعشرين ميلاً كلما تنفس الانسان مرة ونحو سبعة أميال مع كل نبضة في

جسم الانسان فانه يتنفس في كل دقيقة نحو (١٨) مرة ومع كل نفس (٤) نبضات في العروق وكم ظهر في النجوم من عجائب بالاستكشافات الحديثة فمنها ما ظهر وأخذت الوانه تتغير حيناً بعد حين ثم اختفى ولم يعد الى الآن ومنها نجوم متغيرة لا تحفظ اضواؤها شدة واحدة بل تتغير تارة بالزيادة وتارة بالنقصان بحيث ان النجمة الواحدة تمر على جملة اقدار مختلفة وهذه التغيرات تكون دورية في بعض النجوم أي في اوقات معدودة وايام محدودة و بعضها لم يعلم لها مدة ويقال ان في السماء عشرين مليون نجمة منها (١٨) مليوناً في المجرة التي تسمى باسان علماء الشرع ابواب السماء و بلسان العامة طريق التبانه وهي عبارة عن منطقة ضيقة بيضاء غير منتظمة تقسم الكرة السماوية الى قسمين متساويين تقريباً على حسب دائرة عظيمة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وعرضها متغير جداً ومتفرع الى فرعين يتحدان ثانياً على بعد مائة وخمسين درجة وهذه السحابة قد امكن علماء الهيئة كشف بعض نجومها وتميزها واغلبها لم يزل مسدولاً عليه حجاب الخفاء وهي في الحقيقة نجوم ولكنها لشدة بعدها تتراءى لنا

انها منضمة لبعضها على هيئة تكوّن ضوءاً لبنياً يرى في الليالي الخالية من القمر وعند ما يكون الجوّ صافياً بل الشمس والسيارات والارض والاقمار وتوابعها عبارة عن جزء صغير من تلك المجرة

وتلك النجوم الخافية على ابصارنا فيها فلا نميزها ربما كانت شموساً كشمسنا هذه ولها عوالم وتوابع فسبحان الواسع الحكيم الهادي

وكم في السماء من نجوم متقاربة صغيرة القدر جداً حتى نرى مثل سحابة أو ضباب او قطعة نيرة سحابية لا تحل الى نجوم مفردة بالنظارات القوية ويسمون تلك الجمل بالسدام (والسدام جمع سديم وهو في اللغة الضباب وفي اصطلاح الفلكيين ما علمت) وهذه النجوم على اختلاف انواعها وتباين اشكالها واقدارها وابعادها يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فتتجلى لنا الاشياء بواسطة الاشعة الشمسية المنبعثة على سطح الكرة الارضية واشعة القمر ليلاً والكواكب عند غيبتهما وتكون لنا هداية على طرق السير في اليابسة

ولارباب القوافل في الصحاري معرفة تامة بواسطة تلك

النجوم كعرب الصحراء الكبرى من الملثمين وغيرهم فتراهم يجوبون الاقطار بما لهم من المعرفة التامة لصفاء جوهم وظهور نجومه بل كثيراً ما نرى العامة من ذوي الاشغال الليلية يقدرون ساعاته بطلوع نجم كذا وافول نجم كذا كالخفراء وارباب الفلاحة فينوطون بالنجوم تناوبهم في الاعمال وتعاقب دوابهم على العمل واستيقاظهم للسهر فياسبحان الله كأنهم درسوا علوم النجوم وعلموا ان سيرها لا يختل (صنع الله الذي اتقن كل شيء) وهدى الناس لمعرفة نظامه

دعينا من اليابسة واجيلي نظرك في البحار تري الملاحين يهتدون بها في ظلمات اللجج وامواجها وسواد الليل ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج الانسان يده فيها لم يكد يراها فلو لا ان الله عز وجل جعل تلك الكواكب نوراً وهداية ما اهتدى الى سواء السبيل وضل عنها وزاغ بصره ووقع في حيص بيص ولم تتقدم الامم ولم تتق نفوسهم الى الارتقاء فلذلك هيأ لهم من رحمته بيت الابرة (البوصلة) المختلفة الانواع (التي مضى ذكرها في المجالس السابقة) فان احد طرفيها يتجه الى القطب الشمالي كعاشق لا يرتد طرفه عن محبوبه فهذا

نافع ليلاً ونهاراً ثم بمعرفة جهـة الشمال تعرف بقية الجهات وطول وعرض الطرقات وجميع الاتجاهات الى البلاد الدانيات والقاصيات ويالعجب كيف اتجهت تلك الابرة المغطسة الى تلك الجهة الشمالية وظهرت للامم عنـد احتياجها لها كما ظهر الفحم الحجري وقد خباه لهم ربهـم وانضجـه تحت طبقات الارض بالحرارة ملايين من السنين قبل خلق أبيهم آدم بل قبـل خلق الحيوان حتى اذا جاءت الاعصر المتمدينة وترشحوا للارتقاء والتواصل والتعاون وارتقت عقولهم واخترعوا الآلات البخارية اخرجـه لهم ربهم من المخزن العمومي لتلك الآلات البخارية ليعينهم على سفر البحار وتكون البوصلة دليلة في ظلماته، تأملي قوله تعالى (وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

وبالجملة فالاهتداء بالنجوم سار في البر والبحر كما قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وكم للكواكب على اختلاف انواعها من حكم تبصرة وذكرى للعاقلين . ومن اللطائف اني كنت ايام مجاورتي بالجامع الازهر اسمع من العلامة الشيخ

الابياري رحمه الله يقول ان كواكب السماء كل منها في مدار مخصوص ولو حاد عن طريقه اختل نظام الكون كله فهو كساعة متى اختل احد اجزائها التي عليها المدار اختل سائرها ولما تلقيت العلوم الجديدة بمدرسة دار العلوم وجدت ما يشير الى ذلك من كلام نوتون بعد كيلبير فانه أثبت الجذب العام الذي هو قوة تنقاد لها جميع الاجسام السماوية وتتأثر بها، والتثاقل في الارض في الحقيقة نوع منها وقال جميع اجزاء المادة تجذب بعضها الى بعض بقوة مناسبة طرداً لجسماتها وعكساً لمربعات ابعاد بعضها عن بعض فتبيّن من كلامه ان حفظ كل فلك في مداره متوقف على جذب جميع الكواكب الاخرى له في مداراتها فلو اختل احدها عن مركزه اختل جذبه له قوة وضعفاً فتختل جميع الموازنات وعرضت تلك المقارنة على استاذنا في علم الهيئة حضرة الفاضل عبد المجيد افندي خيري فاقرني عليها ثم وجدتها مستفيضة شائعة بين العلماء العصريين فما اجمل العلم وما ألذ الحكمة قال مؤلف هذا الكتاب وهذه المسئلة سنشبع الكلام عليها في نظام العالم والامم[1] باوفى بيان

---

(١) كتاب نظام العالم والامم مطبوع

الفصل الثاني

(في الشمس ومنافعها)

ثم ان للكواكب منافع كثيرة عائدة على النوع الانساني وما دونه من حيوان ونبات ومعدن

لننظر الى الشمس التي هي اعظم الكواكب جرماً فيما يظهر للباصرة كيف خلقها الله عز وجل سائرة اذ لو كانت واقفة لاشتدت الحرارة في موضع والبرودة في موضع آخر (وسيرها بحسب ما يشاهد وسنشبع الكلام على ذلك قريباً ان شاء الله تعالى) ولذلك نراها تطلع كل يوم من المشرق ولا تزال تمشي في موضع بعد موضع الى ان تنتهي الى المغرب فلا يبقى موضع محاز لها الا ويأخذ من اشعتها وتميل كل سنة مرة الى الجنوب ومرة الى الشمال لنعم فائدتها ولها تأثير في العلويات وتأثير في السفليات اما تأثيرها في العلويات فمنه اخفاؤها ضوء جميع الكواكب عنا لشدة ظهور شعاعها واعطاؤها للقمر النور قليلاً او كثيراً بسبب قربه منها أو بعده عنها وغير ذلك واما تأثيرها في السفليات فمنه تأثيرها في البحار فانها اذا أشرقت

على المـاء تصعدت منـه ابخرة بسبب السخونة فاذا بلغ البخار
الى الهواء البارد تكاثف من البرد وانعقد سحاباً ثم تذهب به
الرياح الى الاماكن البعيدة عن البحار فينزل مطراً يحيي به
الله الارض بعد موتها وتجري به الانهار والعيون فيصير سبباً
لبقاءالحيوان وخروج النبات وقد قال تعالى (وهو الذي يُرسل
الرياح بُشْرًا) تبشر بالمطر (بين يدي رحمتهِ) اي امام المطر
الذي هو رحمته لانه سبب لحياة الارض الميتة (حتى اذا أَقَلَّتْ)
حملت (سحاباً) جمع سحابة (ثِقالاً) بمـا فيها من المـاءِ (سقناه
الى بلد ميت) محتاج لانزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم ينبت فيه
زرع (فانزلنا به المـاء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك) أي
كما احيينا البـلد الميت (نخرج الموتى) احياء من قبورهم بعد
فنائهم ودروس آثارهم (لعلكم تذكرون) وفي آية أخرى (الله
الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء
ويجعله كسفاً) قطعاً (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله
فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا
من قبل ان ينزلَ عليهم من قبله لمبلسين) آيسين (فانظر الى
آثار رحمة الله كيف يحيي الارض) بالنبات وأنواع الثمار (بعد

موتها ان ذلك) أي الله (لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير)
ومن فوائد الشمس امر المعادن على رأي المتقدمين من
الحكماء فانهم قالوا انها مركبة من اجزاء أرضية مختلطة بمياه
الامطار تصحبها الشمس فتتولد منها الاجساد المعدنية كالذهب
والفضة وسائر الفلزات ولكن الذي دلت عليه العلوم الحديثة
ان هذه اجسام بسيطة ليست مركبة كما هو مقرر عند
جميع الامم الآن ومن فوائدها أمر النبات فان الزرع والشجر
لا يثمر الا في المواضع التي تطلع عليها الشمس ألا ترين ان
النخل والشجر العظيم لا ينجع الزرع النابت تحتها ولا يبدو له
ثمر وان اخضر ومن النبات ما تؤثر فيه الشمس تأثيراً ظاهراً
بسبب الحركة اليومية كالينوفر والادريون وورق الخروع
فانها تنمو اذا ارتفعت الشمس فاذا زالت الشمس اخذت في
الذبول فاذا غابت ذبلن وضعفن وأمر عابد الشمس معلوم ثم
تعود في اليوم الثاني كما كانت وهكذا ومن فوائدها تأثيرها في
الحيوانات فانا نراها اذا طلع النهار واشرق نور الشمس تنتعش
ابدانها وتظهر فيها قوة الحركة وزيادة النشاط وكلما اشتدت
الشمس وقويت حرارتها ظهرت عليها سيما الابتهاج وزادت

قوة الحياة في ابدانها الى ان تصل الى وسط السماء فاذا مالت اخذت قوة الحيوانات وحركتها في الضعف متدرجة فترجع الحيوانات كالموتى ثم تبعث في اليوم الثاني وهكذا الى ما شاء الله ومن عجيب تأثيرها في الانسان ان اهل البلاد المسامتة لها سود الجلود كما قال ابن سينا

للزنج حر غير الاجسادا   حتى كسا جلودها سوادا

واخلاقهم وحشية وفيهم خفة وطيش وكلما مالت البلاد عن تلك المسامتة بعدت الالوان عن السواد وقربت من البياض بالتدريج فمثلاً نرى اهل صعيد مصر وجوههم فيها سمرة وأهل الوجه البحري اجسامهم بيضاء فاذا اتينا الى الترك وأهل أوربا وجدناهم اشد بياضاً فاذا بلغنا النهاية من جهة الشمال كشمال الروسيا وجدنا قوماً بياضهم ناصع كالثلج الذي كسا ارضهم وتوج جبالهم واخلاقهم مثله في البرودة فمن ذلك تعلم ان المتوسطين في اللون الذين بعدت بلادهم عن مسامتة الشمس وعن مدار القطبين هم القوم الكاملون وهو المعروف بالتجربة فقد ظهر منهم الانبياء والحكماء واكابر العقلاء وذوو الآراء السديدة وهم الذين اشرقت شموسهم على نوع الجنس

البشري فأفادوه اشرف الفوائد بل المقرر في الحكمة قديماً وحديثاً ان الوسط في كل شيء والاعتدال فيه هو الكمال الحقيقي وهو الذي يسعى اليه اطباء الارواح وهم علماء الاخلاق واطباء الاجسام وهم الموسومون بالحكماء في زماننا هذا

ومن عجيب أمر الشمس (١) ما زعمه البراهمة ان اوج الشمس في كل برج يمكث ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ست وثلاثين ألف سنة (٢) وهو في برج الجوزاء الآن (٣) فاذا انقلبت الى البروج الجنوبية انقلبت احوال الارض وهيئاتها فصار العامر غامراً والغامر عامراً والبحر يبساً واليبس بحراً والجنوب شمالاً والشمال جنوباً هذا (٤) وقد كشف في عصرنا الحاضر ان الشمس لها حركة حول نفسها وحركة أخرى حول نجم آخر مجهول لم يعلم الى الآن فقال بعضهم هو نجمة من نجوم الثريا وقال آخر من نجوم الجاثي على ركبتيه وقال

---

(١) هذا من عجائب المخلوقات (٢) ذكر المتأخرون ان الحساب نحو ٢٥ الف سنة وكسور (٣) هذا باعتبار ما مضى والاوج الآن في السرطان اه مؤلف (٤) من الآثار الفكرية أعني قوله وقد اكتشف الخ

آخر من نجوم النسر الطائر وعلى كل فهي وتوابعها وسياراتها
جارية دائبة مجدة ذاهبة على قوس من دائرة عظيمة جداً
وارضنا والقمر والكواكب التابعة لها جارية معها وهن
سارحات في هذا الفضاء الشاسع فياليت شعري الى اين
تذهب بنا وما مقدار يومها الذي تتم فيه قطع ذلك القوس
وكم مقدار الكوكب التي تدور هذه الشمس حوله فسبحان
من حارت الافكار في صنعته ودهشت الالباب من حكمته

الفصل الثالث

﴿ في الكلام على الخلاف بين الاوائل والاواخر في الافلاك ﴾
﴿ ومسئلة الدوران والشمس هي الدائرة ﴾
﴿ حول الارض أم بالعكس ﴾

فقالت يا سيدي ارجوك ذكر مقال شاف يكشف لي
حجاب الخفاء عن الهيئة فقد اشكل القول فيها وخالف السلف
الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون فانى لا أدري ما الصواب
فيها أقول الاقدمين الذين قالوا ان الارض ساكنة وان
الشمس وجميع الكواكب تدور حولها أم قول العصريين

القائلين بان تلك الاجرام لا وجود لها وانما السماء لها معنى آخر وهو الشموس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات وانها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهي الاقدار السبعة المعلومة وان الارض هي التي تدور حول الشمس ثم ما الذي حملهم على ذلك حتى جدوا فيه وما الفائدة في تلك المباحث ؛ فقال اعلمي ان المتقدمين والمتأخرين افرغوا وطابهم في البحث عن الاجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يالوا جهداً في البحث عنها لميل الطباع البشرية الى اقتناص شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم ولذلك نرى كل انسان يعجب بعلمه ولو في مسئلة من دنايا المسائل . فقالت يا سيدي وهل في العلم ادنى واعلى فقال نعم ان المعلومات تنقسم الى علوية شريفة والى سفلية تستضيء منها مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدثور واللذة في العلوم على حسب شرف المعلومات فكلما كان المعلوم اشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة اكثر وكلما نقص عن رتبة الشرف والفضل بان استمد من غيره او كان قريب الدثور والانحلال قلت البهجة به واللذة وانَّى يستوي لذة معرفة موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر

عمرو وغير ذلك بلذة معرفة اقدار الكواكب وابعادها وحساب دورانها وسنيها وشهورها وايامها وانتظام سيرها في دوائرها فان اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثاني فهي عظيمة جداً دائمة بدوام المعلوم وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكماء والدول الكبيرة ألذ من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوي على السفلي ولذلك كان البحث عن كمال الله وجماله أبهج وألذ في النفوس الشريفة لانه لا أشرف منه ولا أدوم وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ ولذلك اتجهت افكار الأمم بأجمعها اليه وصوبت اسهم ارائها لغرضه ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجمهم وبجرهم وغثهم وسمينهم فوجدت موضوع ابحاثهم دائراً على محورين :

الاول القوانين الحسابية التي بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحجنا وصومنا وافطارنا وغير ذلك وهو فن التقويم المسمى علم الفلك وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والمتأخرين كبير خلاف بل

هي متقاربة ولا خلاف الا في امور جزئية لا تهدم أصلاً من الاصول ولا توجب خطأ في مقول

الثانى البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فن يبحث فيه عن الارض مع غيرها من اجزاء العالم والعالم هو سائر المحدثات فهو صنعة عظيمة تكل العقول عن الاحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات وعن الابعاد بين الكواكب ومقادير اجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعن السيارات والثوابت وعن الشمس اهي التي تدور حول الارض ام الارض هي التي تدور حولها وعن حقيقة السموات وغير ذلك وهذا هو الفن الذي حمى فيه وطيس الخلاف بين الاوائل والاواخر وعلماء هذا الفن مقرون بان أدلتهم ظنية غاية الامر ان بعضها اقرب الى الظن من الآخر ويشهد له [1] انهم كانوا مطبقين على تقدير بعد الزهرة عن الشمس وعلى مقدار جرمها ثم في سنة ١٢٩٣ ارسلوا العارفين الى الجهات وحرروها فعرفوا ان جميع حساب السابقين خطأ محض وانها اقل من ذلك كله

(١) من كتاب صفوة الإعتبار للشيخ محمد بيرم التونسي اهـ

بعداً وجرماً ومن الجائز ظهور الخطأ في هذا التحرير أيضاً في وقت آخر

وحيث لما كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماؤه في اسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الاجماع على ان ذلك من آثار تقابل الشمس والارض فقد كان علماء الهيئة في غابر الازمنة على ما وصل الينا يدرسون في مدارسهم ويعلمون تلامذتهم هذه الهيئة الجديدة المعروفة الآن فقد كان فيثاغورس الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته في مدرسة كروتونيا من بلاد ايتاليا على طريقة حركة الارض وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدة خمسمائة عام معتقدين ان هذا المرئي الذي نسميه سماءً او فلكاً هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتناف الاشعة الشمسية للاجزاء الارضية وأن الكواكب الثابتة في ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا واقمار كقمرها وذات ذوائب كما حول شمسنا وكل واحد من هذه السيارات والاقمار وغيرها عالم مثل كرة ارضنا ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة

مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هـذه الارض التي نحن عليها والقمر ملتزم لهـا ويدور عليها ومعها على الشمس . وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض الى حيث لا يحيط به النظر ولا يدركه الفكر (وما يعلم جنود ربك الا هو) فالسموات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة

ولمـا شاعت هـذه الطريقة في زماننا هذا واراد العلماء تطبيقها على ما ثبت عندهم من ظواهر الشريعة من كون السموات سبعة قالوا معلوم ان الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى في غاية الظهور والاضاءة فهو الطبقة الاولى ويقال لها المرتبـة الاولى والقدر الاول وما كان ابعد منها غير كثير واقل في الظهور والاضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا الى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها ابعد عن التي قبلها واقل منها ظهوراً واستنارة والطبقة السابعة هي التي خفيت كواكبها فلا ترى الا بالمنظرة المعظمة فهذه الطبقات هي طباق السماء وفي قوله تعالى (وزيّنّا السماء الدُّنيا بمصابيح)

قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التي نحن فيها المزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الاذناب وغيرها من متعلقاتها الى نحو ذلك من التأويلات التي شرحها علماؤهم وكم ورد عليهم من اعتراض وكم اجابوا عنه وقد رأيت في بعض رسائل العلامة المرحوم عبد الله باشا فكري ان تلك المباحث مستوفاة التفصيل في كتاب أسرار الملك والملكوت وشرحه الموسوم بافكار الجبروت والشرح المذكور في دار السلطنة السنية وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية ثم ان هذه الطريقة كما قدمنا هي التي كانت سارية في انحاء المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء بطليموس قبل الميلاد بمائة واربعين سنة فاختار القول بسكون الارض ودورة الشمس عليها وبنى مذهبه على ذلك فشاعت قاعدته بين الناس واشتهرت في البلاد

ولما جاء الاسلام وترجمت الكتب اليونانية الى اللغة العربية نقلها الفارابي من فلاسفة الاسلام في مؤلفاته العربية اوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره فمن جاء بعده وهجرت الطريقة المتقدمة التي كان عليها فيثاغورس وقد

قال هؤلاء العلماء ان السموات اجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات البصلة متماسة ولا تقبل الخرق ولا الالتئام وليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا لون لها ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل

وبالجملة فهي اجرام اثيرية شريفة مخالفة للاجسام العنصرية الأرضية في جميع اوصافها وهي التي تدور الحركة اليومية والكواكب تحرك معها قسراً وللسيارات حركةاخرى مخالفة لحركة السموات اى ان السموات تدور من المشرق الى المغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة اخرى تدور بها من المغرب الى المشرق كنملة على دولاب تسير متجهة الى غير جهة حركته وبهذه الحركة المخالفة تكونت الفصول والسنون وانتظمت احوال العالم ودوّن ذلك في كتب المتقدمين

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الاسلام اخذ بعضهم في تطبيقها على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق وفريق كفر القائل بذلك المذهب ثم برهن محققوهم كالغزالي وغيره على ان هذه لا تصادم الدين وان من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضل سواء السبيل واضل الناس

فان الدين لا ينفي ولا يثبت وكما ان من يقول ان الله خلق البصلة ست طبقات او سبعاً او ثمانياً وانها كروية او مثلثة او مربعة لا نكفره كذلك لا نكفر من يبحث في العلويات اذ كلها من مخلوقاته عز وجل ولم تذكر الا للاستدلال على صانعها والدلالة واضحة على كل حال. وعلى أي شكل وكثير من علماء الكلام كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطئونهم ويضللون فهمهم حتى قال العلامة الفخر الرازي ان الاقرب للقرآن ان تكون الكواكب سابحة في السماء كما يسبح السمك في البحر وادحض حجتهم في قولهم ان الخرق والالتئام مستحيل على الفلك واستدل بقوله تعالى (كل في فلك يسبحون) وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفيضة الآن ويقارن بين الطريقتين ويميل الى هذه الطريقة كما سيظهر قريباً ثم نبغ ببلاد لهستان رجل يقال له كوبرنيكوس تمهر في العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ الى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهي سنة ٩٣٧ من الهجرة فرجع الى الطريقة التي كان عليها فيثاغورس المؤسسة على حركة الارض وقرر ان الشمس مركز وان الارض والسيارات تدور حولها فاولا عطارد ثم

الزهرة ثم الارض ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل وايد هذه الطريقة بادلة واشهر ذلك في كتاب له عنوانه (حركات الاجرام السماوية) فحكم عليه في مجمع كنيسة رومة بالزيغ والالحاد ولو امكنهم قتله لقتلوه ونهوا عن اشهار كتابه ومع ذلك شاع هذا المذهب فنسب اليه وقيل هيئة كوبرنيكوس ثم قام بعده جماعات في جهات متعددة وازمان مختلفة في انحاء اوروبا وعولوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التي قبلها بالقديمة وانت ترى من هذا انها في الحقيقة هي القديمة وان تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة والطريقتان مذكورتان مستفيضتان في الكتب الاسلامية وقد ذكرهما العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن احمد المتوفي سنة ٧٥٦ من الهجرة في كتابه المسمى بالمواقف وأورد على طريقة دوران الارض اعتراضات ثلاثة ثم كر على تلك الاعتراضات بالنقض والرد وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفي سنة ٨١٦ في شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وليتأمل البصير كيف كان

علماء الاسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل ان يظهر كويرنيكوس ويدعي البعض ان ما تلقفوه من افواه اساتذتهم من الافرنج تقليداً لهم مخترع من عندهم لم يسبقهم به أحد وهكذا نسبة كثير من المسائل اليهم مع انهم في الحقيقة ناقلون عن غيرهم ويدعون انهم هم السابقون فليتأمل المنصفون راجعي تاريخ العلامة سديو المؤرخ الشهير الفرنساوي تعلمي الحجج الدامغة التي اقامها على ان اكثر الاختراعات لبني جنسه كذب محض وانها في كتب العرب من قبل فقالت له قد طال الكلام في هذا الموضوع فما رأيك فقال اني قدمت الاسباب الى رأيي في صدر هذه المقالة وازيده الآن وضوحاً فأقول ان الله عز وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه ولو نظرنا لجميع الحيوانات التي على وجه الارض وكذا الانسان لوجدنا كل فرد منها يعلم ما يحتاج اليه حق العلم ويجهل ما عداه لطفاً من الله تعالى به ولما كانت الكواكب والافلاك لا نحتاج منها الا الى القوانين الحسابية اظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطعة ولم يحم وطيس الخلاف بين الامم فى الازمنة المختلفة فيها والخلاف

فيها يسير جداً لا يهدم أصلاً من الاصول . اما معرفة اجرام السماء وسكانها وهل الارض التي تدور ام الشمس فجهلنا به وعلمنا سيان لا يتوقف عليه امر من امور معاشنا لما ثبت بالبرهان ان الحساب لا يختلف سواء اعتبرنا الارض هي الدائرة ام الشمس

ومن عجيب الاحكام ان أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالاثبات والنفي وكأن الله أراد ان يرينا ان اقرب شيء الينا جهلناه ويا للعجب كيف نجهل حالنا مع ارضنا نحن مقيمون ام ظاعنون ومستقرون ام متحركون وذلك مصداق لقوله عز وجل (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) فكم من شيء جهلناه وهو قريب منا كمسئلة الروح فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء في كل عصر ولم يهتدوا الى الآن وما علم الهيئة الا كعلم الطب فانه ظني ايضاً . فقالت الفتاة لقد بنيت كون الهيئة علماً ظنياً على انه ليس مما يحتاج الى تحقيقه في المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب وانا احتج على ان المسئلة يقينية بما رأيته في كتب القوم من البراهين فلا اسلم ان علم الهيئة ظني . فقال اختصري في البراهين

فالوقت لا يسع والقصد ان يكون مجلسنا نبذاً لطيفة واثمار علوم لا جدليا . فقالت استدلوا اولاً بانه لا يصح دوران الجسم الاكبر حول الاصغر فالعكس هو الطبيعي. ثانياً كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الارض . ثالثاً تغير ظل الارض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئة تدل على انها دائرة وظلها تبع لها .رابعاً ذبذبة البندول فقد وضعوه وضعاً بدقه لا يتأثر بمؤثر خارجي عليه فرسم خطوطاً تتقاطع وتكوّن رؤوسها اقواساً تطول كلما قرب البندول من القطبين وتقصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائما .خامساً انهم وضعوا مقداراً من الزيت في الكؤل واداروه بابرة فدار وتكوّرَ وتفرطح في قطبيه الى آخر ما قالوا فلعلها مثله.

فقال لها ابراهيم بعض هذه الادلة اقيسة تمثيلية وهي لا تثبت حكما وبعضها مبني على الاستبعاد وهما لا يفيدان القطع ولكن باجتماعها افادت الاقناع لا اليقين

فقالت الفتاة هل القرآن ينافي هذا المذهب على فرض انه يقين فقال ان القرآن كلام الحكيم الذي اعجز جميع البلغاء والفصحاء ولم يكن القصد منه ان نشغل اذهاننا بتطبيقه على

كل مذهب يحدث في العالم وعقول الناس تتفاوت ولو طبقناه على هذا المذهب هل نأمن ان تحدث مذاهب اخرى فوجب ان يطبق عليها ايضاً. كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات الارضية الا ليعرف كمال الصانع بالصنعة اما كون الصنعة دائرة او ساكنة فذلك ليس محل بحثه وكم حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التي ادرجت في الاكفان مع ان كثيراً من ظواهر الالفاظ كان يخالفها حتى جاء تكشيف الافرنج فابطل المذهب السابق وظهر ان تلك المحاولة والتطبيق على المذهب البائد لم يصادف محله . على ان علماء الاسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بآرائهم الثاقبة حتى وافقوا من قبل علماء الافرنج في هذه الايام فقالت وهل نذكر شيئاً من ذلك فقال نعم

اولاً . نفس دوران الارض فقد شم من كلام صاحب المواقف انه يعتمده وهذا كان قبل ان يعرفها الافرنج .

ثانياً . كانوا يعتقدون النحس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثاً . عدم الخرق والالتئام في الفلك .

رابعاً . ان الافلاك لها نفوس وارادات .

خامساً . ان بعد الهواء كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الاسلام ووافقهم الافرنج في هذه الايام على انا لو ارخينا العنان للقلم ونظرنا في القرآن لوجدنا ما يشير الى الطريقة الجديدة وان لم يذكر في كتب المتقدمين منها قوله تعالى (صنع الله الذي أتقن كل شيء) بعد قوله (وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهي تمُرُّ مرَّ السحاب) ومنها انه قال (وهو الذي مدَّ الارضَ وجعل فيها رواسيَ وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زَوجين اثنين يُغشي الليل النهارَ) فذكر الليل والنهار بعد ذكر الارض يشير الى انهما من آثار الارض ويقوي ذلك انه قال يغشي الليل النهار فجعل الليل الذي هو ظلمة الارض يغشي به النهار الذي هو ضوء الشمس ففيه تلميح الى ان الارض هي التي تحدث ذلك بفعل الله تعالى ومنها (والشمسِ وضحاها والقمرِ اذا تلاها والنهارِ اذا جلاها والليلِ اذا يغشاها) فجعل النهار الذى هو مقابلة وجه الارض للشمس مجلياً لها والليل الذي هو الظلمة الاصلية للارض مغشياً لها فاسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل

والنهار الذي هو من آثار الارض وهـذان الوجهان ذكرهما
العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي ومنها قوله (وكل في
فلك يسبحون) بعد ذكر الارض والقمر والشمس ومع ذلك
كله فالقرآن لا يعارض شيئاً من هذه الاشياء . على انا
لا نحتاج لتأويل القرآن الا لليقينيات وهذا ليس منهـا فان
نوع بنى آدم لا يمكنه ان يحيط بشيء من علم الله تعـالى الا
بمـا شاء وهل يشاء الله ان نعلم ما لا مصلحة لنـا في علمه بل علم
مثل ذلك ربمـا اضر بمصالح الانسان من حيث ولوعه بما هو
بعيد عنه وربمـا يشغله عن أمور معاشه بل الاغرب ان أحد
العلماء الفرنساويين المتأخرين قال ما ترجمته ان للعقل حـداً
محـدوداً لا يتجاوزه فاتعـاب العقل في معرفة الاجرام العلوية
وماهيتها كاتعاب البصر في ان يرى ما فوق السقف من اسفله
فهب انك اعنته باعظم المرايا المـكبرة فانه لا يمكن ان يخترق
السقف حتى يرى ما فوقه ويناسب هـذا ما صرح به عالم
الفرنساويين المسمى فيلكس لاميروس في القرن التاسع عشر
من قوله ان الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب فان هـذا
المعنى بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه الخ ما قال فكلام هذين

العالمين يؤيد ما قلنا من ان هذه ظنيات انظره في كتابنا ميزان الجواهر وسيرد عليك فيه أيها القارئ ان شاء الله تعالى ان كل حيوان له حد ومقدار في المعارف لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ولو لا ذلك لاختل نظام العالم

الفصل الرابع

(في الكلام على عجائب القمر ومنافعه)

ولما كان القمر يتلو الشمس في الشهرة وتعرف به الاشهر وجب ان نذكر شيئاً من خواصه فنقول من عجائبه امر البحار وذلك ان القمر اذا صار في افق من آفاق البحر اخذ ماؤه في المد قليلاً مع القمر ولا يزال كذلك الى ان يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع فاذا صار هنالك انتهى المد منتهاه فاذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء ولا يزال كذلك راجعاً الى ان يبلغ القمر مغربه فعند ذلك ينتهي الجزر منتهاه (ومعنى الجزر انحسار الماء والمد ارتفاعه) فاذا زال القمر عن مغرب ذلك المكان ابتدأ المد مرة ثانية الا انه اضعف من الأول ثم لا يزال كذلك الى ان يصير القمر في وتد الارض

فحينئذ ينتهي المد منتهـاه في ذلك الموضع ثم يبتدئ بالجزر والرجوع ولا يزال كذلك حتى يبلغ القمر مشرق ذلك الموضع فيعود المد الى ما كان عليه اولاً فيكون في كل يوم وليـلة في ذلك المـكان من البحر مدان وجزران ومنها امر ابدان الحيوان فانهـا في وقت زيادة القمر تكون اقوى والسخونة والرطوبة والنمو عليها اغلب وتكون الاخلاط في بدن الانسان ظاهرة والعروق ممتلئة فاما اذا اخـذ القمر في النقص فان الابدان تكون اضعف والبرد عليها اغلب والنمو اقل والاخلاط في غور البدن والعروق اقل امتلاء وذلك ظاهر . ومنهـا ان شعور الحيوانات يسرع نموها وتغلظ في أول الشهر وفي آخره تكون على الضد وكم اودع اللطيف الخبير في القمر من فعل عجيب وتأثير غريب فقد قال العلماء ان ألبان الحيوانات تكثر في النصف الاول من الشهر وتزداد ادمغتهـا ويكثر بياض البيض المنعقد فيه وتسمن الاسماك في البحار ويكثر وجودها فيه ويسهل صيدها ويقوى فيه فعل الحشرات التي تلسع او تعض كالعقرب والحية ويكثر خروجها من اوكارها فيه وفيـه يكثر طلب السباع للصيد وان الاشجار اذا غرست فيه اسرعت

النشوّ والحمل واذا حصل لقاحها وحملها فيه جاد ثمرها وقد شوهد عند ارباب الفلاحة بل عند العامة منهم ان الفواكه والرياحين والزَّرع والبقول والاعشاب وغيرها كالخوخ والبطيخ والسمسم والقثاء والخيار والقرع تزيد فيه زيادة اكثر منها في النصف الاخير واذا وقع نوره على الفواكه اعطاها لوناً عجيباً اصفر فاقعاً او احمر قانياً او ابيض ناصعاً او ازرق زاهراً وهذا كله في زيادة القمر اما في نقصانه ففعله اقل فتكون الوان الفواكه اقل جمالا ويقل نمو الفواكه والزرع ونمو القثاء والخيار وتقل الالبان في الضروع ويضعف فعل ذوات السموم ويقل طلب الوحوش للصيد ويقل خروج الحشرات من اوكارها وهكذا (صنع الله الذي اتقن كل شيء) وهذا كله رأيته في كتب القدماء وكم في القمر من فوائد غير ذلك فمنها انه يقسم الزمان الى شهور بدون معاناة حساب ثم الشهور تكون سنين كل اثنى عشر شهراً منها سنة وهي المسماة بالسنين القمرية



الباب الثالث

« في ذكر آيات من القرآن مشتملة على جميع ما تقدم »
« وفيه خمسة فصول »

الفصل الاول

﴿ في قوله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾
﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا ﴾
﴿ بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ان في اختلاف الليل والنهار وما ﴾
﴿ خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون ﴾

فقالت الفتاة كفى ما عرفناه من علم الهيئة والطبيعيات ونحن الآن نحب ان نسمع منكم ما يحضركم في ذلك من كتاب الله عز وجل فانه هو النور الذي يستضاء به حتى اذا شرعت فى قراءته بتأمل اذكر ما ذكرناه فى مجالسنا هذه عند آياته . فقال ابراهيم نعم ان جميع تلك العلوم مندرجة ضمن آيات من القرآن ذكرت بجمل هذا العالم وقد عدها بعضهم خمسماية آية منها قوله عز وجل (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) والضياء أقوى من النور فخصت الشمس بالاول

والقمر بالثاني (وقدره منازل) اي قدر عز وجل سير القمر منازل وهي ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منها منزلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وليلة ان كان تسعاً وعشرين .

(فائدة في عموم رحمة الله تعالى)

(تناسب ما نحن فيه)

ثم قال اعلمي ان رحمة الله عامة في جميع ملكه كما انبأ عن ذلك عز وجل بقوله (ورحمتي وسعت كل شيء) ولذلك ترين جميع طبقات الناس مغمورين في نعمه فقد اغنى عما يتكاثر به المترفون والملوك من المال بكسرة :

ملك كسرى تغن عنه كسرة وعن البحر اجتزاء بالوشل

واغنى عن اواني الذهب والفضة والنحاس وغيرها باواني الخزف بل بأواني الخشب بل ربما شرب الانسان براحته مستريحاً لا يعاني شراء الاكواب ولا يتكلف الاسباب وعن ثياب الخز والحرير والديباج المرصعة بالجواهر والذهب والفضة بثياب القطن والكتان والصوف بل بجلود الحيوانات فادى كل

ذلك مقصود الحياة وارى عباده رحمته في كل شيء فضلاً منه وكرماً وهكذا جميع اطوار الحياة حتى انك ترين الاعرابي القح في الجبل ربما لم يكن له الا شاتان تحلبهما زوجته وتبيع لبنهما وسمنهما وقد كفتاه هموم الحياة واسقامها واستراح فكره من همومها واحوالها بل ان قلت انه اقل هموماً من اعظم مثرٍ في اروبا كنت وافقت المحز واصبت الغرض واغنى عن المدافع القتالة بل النيران المحرقة المميتة في زماننا هذا بسلاح من حديد بل من خشب في الازمنة الغابرة بل اغنى بعض الحيوانات باظفارها والبعض بعدوها والبعض بقوتها الى غير ذلك . فمن دلائل فضله وآثار كرمه انه لم يخص السلاح القوة والملابس بشيء مخصوص بل اكثر منه ليعم الطبقات كلها وهو الذي اغنى جميع الحيوان بالتفاهم بطبيعتها فالفهم جبلة مركوزة في كل حيوان مع ابناء نوعه ومنه الانسان (فِطرَةَ اللهِ التي فطرَ الناس عليها) وان لم يعانوا صرفاً ولا نحواً ولا معاني ولا بياناً ولا بديعاً ولا عروضاً ولا قوافي وهذه من أعظم الآيات قال الله تعالى (ومن آياته خلقُ السمواتِ والارض واختلاف ألسنتكمْ والوانكم) ولما كان مثل هذه

الدقائق لا يفهمها الا الاقلون الذين عرفوا كثيراً من الفنون اردفه بقوله (ان في ذلك لآيات للعالِمِينَ) اذ عرفت هـذا فاجيلي نظرك في العلويات تجديه عز وجل افاض على عباده نورها ولم يحوجهم الى تجشم المشقات في استضاءتها وجعل منازل القمر التي ينزلها وتشكله بالاشكال المختلفـة واختفاءه وظهوره دلالة واضحة لعامة الناس وخاصتهم حتى انك ترين الاعرابي القح يعرف السنين والحساب فلا تخفى عليـه آجال دينه ولا سنو تاريخه ولا غير ذلك ويكتفي برؤية الهلال اول الشهر عن تلك الجداول ومزاولة علم الفلك وعلم المناظر والرصد والتقويم له فلا يحتاج الى معرفة طول وعرض ومقام وبسط وفلك وجبر وحساب وهندسة وما يلجئه الى ذلك وقد اختصر له ربه الحساب وعلمه بلا كتاب حتى ادخله في هذا المعنى وهو انما قدرنا القمر منازل (لتعلموا عدد السنين والحساب) فهكذا جميع الكون بآثاره . فما من شيء عند الخاصة الا واغنى العامة عنه بنظيره فترين الفلاح في ارضه يعرف الظهر والعصر بقياس قدمه وبظل الشاخص ينصبه ويقسم ليله باقسام على حسب علامات تبدو له في الكواكب ليـلاً فلم يحوجهـم الى ساعة

يدير ونها فنوره ملأ الاكوان وفضله عام (ما خلق الله ذلك الا بالحق) الذي هو الحكمة التامة مظهراً دلائل توحيده بالبراهين القاطعة ولم يخلق ذلك عبثاً وباطلاً بل (يُفصّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون) أي يبين البراهين القاطعة لقوم يستدلون على قدرة الله تعالى ووحدانيته ثم ترتب على سير الشمس المذكورة تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان على حسب انتقالها في بروجها ونزولها في منازلها وطول البلاد وعرضها وان من الايام والليالي ما هو معتدل دائماً كما في خط الاستواء فان الليل والنهار متساويان هناك كل منهما اثنتا عشرة ساعة وكما في القطبين فان كلا من الليل والنهار فيهما ستة أشهر فتكون السنة هناك يوماً وليلة فقط يعرف هذا من زوال علم الهيئة وما عدا خط الاستواء والقطبين وهو ما بينهما فمختلف دائماً الا في يومين في السنة وهما اول فصل الربيع واول فصل الخريف فقد تساوى الليل والنهار فيهما فى جميع اقطار المسكونة وكأن هذا يشير بطرف خفي الى ان المساواة والعدل أمر لازم لافعاله عز وجل .

(جوهرتان مصونتان)

الاولى : قد علم بما ذكرنا ان القسمة العقلية بالاثبات والنفي في الليل والنهار قد وجدت فمنها المعتدلة والمختلفة

الثانية : معلوم ان المساواة والعدل قد بني عليهما اساس الملك كما قال الله عز وجل (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط) ولكن ربما خفي هذا في الليل والنهار فربما يظن انهما غير متساويين فنقول ان اختلافهما ظاهري فقط اي باعتبار الآحاد ولو حسبنا ساعات مجموع ليالي السنة ومجموع ساعات نهارها لخرجت متساوية فهو اختلاف عند العامة مساواة عند الخاصة الذين يعرفون السنين والحساب حق المعرفة وقد تظهر المساواة للعامة في المسكونة في يومين من السنة نموذجاً يستدل به على الحقيقة وهما يوما الاعتدالين الربيعي والخريفي كما تقدم بل من نظر لاحوال نوع بني آدم هاله ما يرى من اختلاف الدرجات والرفع والخفض والغنى والفقر بحسب الظاهر ولكن قد ساوى في الحقيقة بين جميع الناس فان في الظهور قصم الظهور فاودع في كل مرتبة من المراتب آفة في جنب منفعة ونحلة بجانب شهدة

والناس جمعا عند كل كفؤه   والهم مفترق وما احد خلي

فبالنظر الى الظاهر يظهر الاختلاف وبالنظر الى الباطن يعلم ان هناك مساواة بوجه ما وهذا يحتاج الى شرح طويل لا يسعه المقام بل قد ظهرت المساواة للعامة بالموت حتى ساوى بين السوقة والملك فيا للعجب كما اظهر المساواة بين الايام والليالي في يومين من السنة وفي جهة خط الاستواء والقطبين اظهرها هنا بموت النوع الانساني كله ليظهر العدل في افعاله عز وجل للعامة والخاصة وهذا أيضاً من عموم رحمته اذ عمم العلم والمعرفة ولو بنوع ما لكافة النوع الانساني ويعجبني قول بعضهم :

اذا ما رأيت الله في الكل فاعلا   عقلت فصيرت القباح ملاحا
وان لم تجد الا مظاهر صنعه   جهلت فصيرت الملاح قباحا

ولما كان اختلاف الليل والنهار وما اشتملا عليه من العجائب الربانية التي ذكرنا وما لم نذكر أردفها بقوله (انَّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون) ولما كانت الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار من اعظم الدلائل على وجود الباري جل جلاله ذكرهما

في مواضع كثيرة من كتابه منها قوله مقسما (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها) وقوله (والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى) وقوله (الشمسُ والقمرُ بحسبان) وقوله (والشمسُ تجري لِمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليمِ والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرْجونِ القديم) فقالت وما معنى العرجون قال هو عود الشماريخ التي فيها البلح وشبهه به من ثلاثة اوجه دقته وتقويسه واصفرار لونه ولا يتم ذلك الا اذا كان قديماً

الفصل الثاني

في تفسير آيتين وهما (لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وقوله تعالى (قل أرايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء افلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

فقالت الفتاة ما معنى قوله تعالى (لا الشمسُ ينبغي لها ان تدركَ القمر ولا الليلُ سابقُ النهار) فقال المعنى ان الله عز

وجل لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه فهما يتعاقبان بحساب معلوم فلا يجيء احدهما قبل وقته وقيل لا يدخل احدهما في سلطان الآخر فلا تطلع الشمس بالليل ولا يضيء القمر بالنهار فاذا اجتمعا فذلك يوم القيامة ولذلك قال في آية اخرى (وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ) وذلك ان هذا الملك منتظم على غاية من النظام والاحكام فالشمس والقمر والليل والنهار كل بحساب منتظم فلا يعدو احدهما حده . فاذا قامت الساعة اختل هذا النظام وفسد الاحكام وضاع الحساب كما قال تعالى (اذا الشمسُ كُوِّرت واذا النجوم انكدَرَت واذا الجبالُ سُيِّرَت واذا العِشارُ عُطِّلت واذا الوحوشُ حُشِرت واذا البحارُ سُجِّرَت واذا النفوسُ زُوِّجت) اي ان الشمس تظلم وتتساقط النجوم وتسير الجبال عن وجه الارض وتترك الابل العشار بلا راع وهي جمع عُشَرَاءَ وهي التي مضى عليها من حملها عشرة اشهر ولا تزال بهذا الاسم الى ان تضع لتمام سنة وتختلط الدواب والطير والوحش ويضطرم البحر ويصير ناراً وتتصدع الارضون والسموات ثم يموت المؤمنون بريح تهب عليهم ويميز الله

الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فى جهنم ويجعل كل طيب فى الجنة وذلك لاختلاط هذا النظام الذي اشتبه فيه المحسن بالمسيء وامتزج الطيب بالخبيث اما نظام الآخرة فانه جمع الكمال بعضه على بعض والنقص كذلك ويقرن كل خليل بخليله ويذهب به الى ما هم اهله

فقالت الفتاة كاد الكلام يخرج بنا عن عجائب السموات وغرائبها والليل والنهار فما معنى قوله عز وجل (قل أرأيتم ان جعلَ اللهُ عليكم الليلَ سرمداً الى يوم القيامةِ مَن الهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعلَ اللهُ عليكم النهارَ سرمداً الى يوم القيامةِ مَن الهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه افلا تُبصرون ومن رحمتهِ جعلَ لكم الليلَ والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضلهِ ولعلكم تشكرون)

قال ابراهيم ان اللطيف الخبير خلق النبات يتغذى من الارض والماء والهواء وهذه الثلاثة متيسرة له في أي مركز وجد فسخر له الامطار والبحار التي تستمد منها واجرى في الارض ينابيع يجري فيها الماء فالماء النازل من السماء اما ان يكون أنهاراً واما ينابيعَ في الارض فعم بفضله ذلك فاستغنى

بها النبات عن الحركة اما الحيوان فقد جعله الله عز وجل
غذاء بعضه من النبات وغذاء الآخر مركباً من النبات
والحيوان و بعضه من الحيوان فقط وليس يتيسر ذلك في كل
مكان وعلى كل حال فسهل اللطيف الخبير له الحركة ليسعى في
طلب غذائه من مواطنه ولا بد له من ضياء ليهتدي به وليأخذ
النافع ويذر الضار وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل ولا
بد للحركة من سكون وللنشاط من خمود فمن لطيف حكمته
وعميم رحمته ان اعقب الضياء بالظلام والنهار بالليل لتسكن
الحيوانات وتأنس بأزواجها في الخلوات ويتم لها الحبور فانظري
كيف يكون حال هذه المخلوقات لو جعل الزمان كله ليلاً
وكيف يتصرفون في معايشهم بل يخبطون في الظلمات
ويعمهون في غياهب الدجنات واذا جعل كله نهاراً فكيف
يسكنون وفي أي زمن يستريحون فمن رحمته جل جلاله ان
خلق الليل لنسكن فيه والنهار لنسعى فيه

فقالت لم لهج المغنون بقولهم يا ليل فقال لان الانسان
مركب من كثيف وهو الجسم وخفيف وهو الروح فمتى تحرك
الجسم شغل الحواس والنفس ومتى سكن الجسم هدأت الحواس

وركدت وظهر سلطان النفس فتجتمع أفكارها ويذكر كل ما اليه يميل وغلب على طبعه فالليل انس الاصحاب ومجتمع حباب، ثم الليـل مهبط الرحمات ومتنزل الملائكة فيه تجتمع الخواطر وتستدر نتائج العلوم والمنطوق والمفهوم ويستريح الحيوان من الآلام الجسمية فترى الناس عند سماعه يتواجدون والى رؤيته فرحون مستبشرون (كل حزب بما لديهم فرحون) فهذاذكر الاحباب والاصحاب والخلان وهـذا تذكر ركوعه وسجوده وتضرعه وهجوده وصلاته ودعاءه وهذا ذكر الكتب والتأليف والمطالعة والتصنيف وهذا خلد الى الراحة من آلامه واحزانه بل كل ما على الارض من حيوان فالليل له راحة لسكون اطرافه فيه فضلاً عما له من شوق وتوق الى أمر خسيس او شريف وضيع او رفيع فقالت الفتاة انا أتذكر لطيفة تناسب هذا المقام وهي ان المجوس قالوا ان للعالم الهين احدهما اله الخير ويسمى ازدان بفتح الهمزة او يزدان بفتح الياء المثناة التحتية اوله ويعبرون عنه بالنور ولذلك يستديمون وقودالنار مشاكلة لذلك النور وعبدوها وأشار لذلك الشاعر في وصف الخمرة حيث قال:

و بت فيها أرى النار التي سجدت

لها المجوس من الابريق تسجد لي

وقال في نفسه لو كان احد ينازعني في مملكتي كيف يكون حاله معي فنشأ من تلك الفكرة الاله الثاني وهو اله الشر فابعده واقصاه وحصل بينهما التضاد و يعبر عنه بالشيطان و بالظلمة فنشأ عنه كل شر ثم ان المجوس ايضاً يسمون النجوس لانهم لا يتحاشون عن النجاسة ومانوية أيضاً نسبة لكبيرهم ماني وقد لهجت الادباء في أشعارهم بالتلميح الى مذاهبهم وابراز النكت الادبية ان كان الليل وقت الصفا واجتماع الاخلاء قال ابو الطيب :

وكم لظلام الليل عندك من يد | تحدث ان المانوية تكذب
وقاك سرى الاعداء تمر بحيهم | و زارك فيه ذوالبنان المخضب

يقول كذب المانوية لان ذا البنان المخضب وهي محبوبته زارته فيه ولم يعلم بها الاعداء حتى يشوا به . وقال غيره :

هدى بثناياه وضل بشعره | فكدنا نقول المانوية تصدق

وهذا كاد يضل بشعره وقال الشيخ الامير:

وكم ليلة حيا الحبيب بوصله　　وقدسترتنا من دجاهاذوائب
ولما بدا نور الصباح اراعني　　فقلت له ان المجوس كواذب

وقال أيضاً :

وافى الحبيب بليلة　　وازال عنا كل بوس
وبدا الصباح فراعنا　　لاشك في كذب المجوس

الفصل الثالث

﴿ في تفسير آيات من سورة النحل فيها عجائب السموات والارض ﴾

فقال لها ابراهيم هل تذكرين آيات متتابعات مشتملات على عجائب الانسان والحيوان والنباتات والجبال والانهار والليل والنهار والسماء والارض والبحار والنجوم وقد كان قصد بذلك اختبارها في تفسير القرآن فتفكرت ملياً ثم قالت قال الله عز وجل مظهراً لعظيم قدرته وعجيب حكمته . بسم الله الرحمن الرحيم (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين والانعام خلقها لكم فيها دِفءٌ ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جَمالٌ حين

تُرِيحون وحين تسرَحون وتحمل أثقالكم الى بلدٍ لم تكونوا بالغيه الا بشِقِّ الأنفس ان ربكم لرؤوفٌ رحيم والخيلَ والبغالَ والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق مالا تعلمون وعلى الله قصدُ السبيل ومنها جائرٌ ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون يُنبت لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والاعنابَ ومن كل الثمرات ان في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بامره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذَرَأَ لكم في الارض مختلفاً ألوانهُ ان في ذلك لآية لقوم يذَّكرون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حِليةً تلبَسونها وترى الفُلْكَ مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى في الارض رواسيَ ان تَميد بكم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون وان تَعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفورٌ رحيم) ولما اتمت هذه الآيات قراءة شرعت في الكلام على تفسيرها اجمالاً فقالت سيدي ان الله عز وجل اظهر عظيم قدرته وامتن على عباده بخلق

السموات والارض لانها اعظم مشاهد للانسان ولما كان الانسان هو اعظم نتيجة لهما اردفهما بذكره وفي عجائب خلقه ابهر دليل حيث خلقه من نطفة قذره ثم صار اكثر شيء جدلاً مع ان الاليق به ان ينظر الى مبدئه ويتفكر في ملكوت السموات والارض ثم عدد عليه صنوفاً من نعمه وضروباً من آلائه فذكر ما ينتفع به من الحيوان والنبات والماء النازل من السماء النافع لهما وذكر كثيراً من انواع القسمين مما ينتفعون به وعجائب السموات ومنافع الكواكب والليل والنهار لتوقف هذه الانواع عليها وذكر البحار ومنافعها والجبال وما يهتدي به من علامات الطرق .

وبعبارة اوضح اقول ان الله ذكر في هذه الآية نعمه على عباده بخلق الحيوانات وان منها المآكل والملابس فنتخذ منها ملابس الشتاء وملابس الصيف ويتخذ منها الاعراب خيامهم وننتفع بألبانها ثم منها ما يحملنا ويحمل امتعتنا الى الامكنة البعيدة ومع هذا كله فهي زينة يتجمل بها فيتسم اربابها بالابهة والجاه لما يرى عندهم من آثار نعم الله عز وجل وكم له من مخلوق في الارض وفي السماء لا نعلمه فعلومنا قاصرة على ما ننتفع

به فلو بحثنا عما لا نعرف لكان ذلك جوراً وظلماً وعبثاً كمسئلة الروح وحقائق الكواكب وغيرها ثم ذكر انه انزل الماء من السماء فهو لشرابنا وطهورنا وسقينا زرعنا وأنعامنا وأنه ينبت به الزرع وهو الحب الذى نقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما وقدمه في الذكر لان به قوام أبداننا وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذلك النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر بقية الثمار اجمالاً . ولما كانت الاجرام العلوية لا بد منها لنمو هذه المخلوقات ولنهتدي بضوئها اعقب ما ذكر بذكر تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فلعمر الحق ان من لم تدهشه هذه العجائب فيوقن برب البريات لأبعد عن العقل والفهم بعد ما بين المشرقين فانه في بعض هذه فضلاً عن كلها دلالات واضحات على كمال بارئها وجمال مبدعها الحكيم وقدرته وانظر رعاك الله الى الوان الزرع كيف اختلفت مع اتحاد الاضواء السماوية والماء والعناصر والهواء والارض وما اغفلنا عما بين ايدينا وكيف جعل هذا احمر قانياً وهذا اصفر فاقعاً وهذا ازرق زاهراً وهذا

اخضر ناضراً وهذا ابيض ناصعاً وهذا اسود قاتماً (قال مؤلف
هذا الكتاب قد اوضحت هذه الغرائب في كتابنا ميزان
الجواهر وفي كتاب نظام العالم والامم) وكل لون منها يتنوع
انواعاً شتى واشكالاً متخالفة فسبحانه وتعالى ثم هذه البحار من
ادل الدلائل واعجب العجائب فقد جعل جل جلاله في الماء
جزءًا عظيماً من الملح لولاه لأنتن بطول المكث ففسد الهواء .
فلعمرك لم يخلق ربك شيئاً سدى ولقد ملأه بالمنافع لعباده
فمنه السمك وهو انواع شتى قيل ان عجائب البحر اكثر من
عجائب البر بل ان فيه السهل والجبل والعامر والغامر والرياض
الناضرة والبساتين الزاهرة والرمال والصخور فكل ما في البر
له نظير ما في البحر حتى انهم كشفوا في البحر الابيض وغيره
حريراً يخرج من افواه الاصداف ويستخرجونه منها ويبيعونه
في اسواق ايطاليا ويسمى بالبوص يشبه الحرير المعلوم ثم هدانا
الى طريق استخراج ما فيه من السمك والمرجان والجواهر
فالمرجان يخرج في أسفله كالمزارع في اليابسة حتى اذا استوى
اخذه الغواصون وذلك كثير عند بلاد الجزائر وتونس،
واللؤلؤ يستخرجونه في صدفه من مواضعه كبحر فارس وغيره

وهذه الجواهر زينة لنوع الانسان وحلية [1] له يلبسها فتبارك الله الذي سخر لنا القاصي والداني وهدى الى استخراجه واستعماله فما أبدع صنعه واجمل ابداعه ولما كان معظم سطح الكرة الارضية مغطى بالماء بعيد العمق هدانا الى صنع هذه السفن التي تمخر الماء أي تشقه حتى تحمل أنفسنا وبضائعنا من بلد الى اخرى وان بعدت الشقة كما قال في آية اخرى (ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وجعل السفن جارية اما بالهواء واما ببخار الماء المتحلل بالحرارة المعلوم في زماننا هذا . ولما كانت هذه الارض كجسم الانسان جعل فيها الجبال فكما ان الجسم له عظام تمسكه كالاعمدة جعل كذلك للارض الجبال لئلا تضطرب وكم لهذه الجبال من منافع لنا فمنها الصخور والاحجار التي نبني بها مساكننا وحصوننا وقلاعنا ولقد جعلها اللطيف الخبير مخازن للمياه وذلك ان المطر

---

(١) ذكر في مجلة الهلال انهم اخترعوا في اميركا آلة لضغط الهواء حتى يصير سائلاً وسيجعل قائماً مقام غيره وهو اقل خطراً منه واقل كلفة واقوى منه مائة مرة وهذا النبأ عظيم اهـ .

ينزل من السماء فيسقط على قمم الجبال وينحدر الى السهول فيتخذ له سبلاً يجرى فيها ويحدث من ذلك الانهار ويجرى منه الى باطن الارض ينابيع اخرى تجرى تحت الارض فكما يرى على ظاهرها أنهار كذلك يجرى في باطنها مثلها وتمر على معادن مختلفة فتكتسب طعوماً مختلفة وذلك كمعدن الحديد والنحاس والرصاص والقصدير وغيرها ولذلك تسمى مياهاً معدنية ولها منافع عظيمة مشهورة في امراض مختلفة واليها تحفر الآبار لاستخراج مياهها ولما كان المطر ليس بدائم جعل سبحانه بعض الماء النازل على قمم الجبال ثلجاً بما يناله من البرد الشديد فيكون كالتاج لتلك الجبال ثم كلما ناله شيء من حرارة الشمس تحلل منه ماء ورشح الى باطنه فخرجت منه العيون التي تمد الانهار ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً ولولا هذا التدبير لانقطع جري ماء الانهر وهو خلاف صنع الله عز وجل الذي عود عباده عظيم رحمته وجزيل اكرامه .

(لطيفة) من اعجب ما ذكر في العلوم الطبيعية ان كل مائع اذا جمد صغر حجمه الا الماء فانه اذا صار ثلجاً كبر حجمه عما كان وهو سائل فانظر ماذا ترتب عليه من تقدير العزيز

العليم ترتب عليه ان المكان المملوء به يتضايق فلا تجد الاحجار المحيطة به في الجبل محيصاً من ان تنشق بفرقعة عظيمة فتصير عيوناً صغيرة او كبيرة فتصيب الشمس بحرارتها ذلك الثلج فيسيل فهذه من حكم ذلك التقدير المحكم قال تعالى: وإنَّ من الحجارة لمَا يتفجرُ منه الانهارُ وان منها لما يشّقَّقُ فيخرجُ منه الماء وانَّ منها لمَا يهبطُ من خشيةِ الله) فانظر كيف ابدع الله الماء على هذا النمط ودبره وخصه بهذه الخاصية حتى كبر حجمه فمزق الاحجارفتفجرت منه الانهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار

(فائدة) قد ظنوا في زماننا هذا ان في مصر مجرى جعله الله عز وجل في اغوار الارض يبعد عن ظاهرها بنحو اربعين او خمسين متراً يخرج من جبال القمر التي هي وراء خط الاستواء بنحو ثلاث درجات وتنتهي بنحو الدرجة الرابعة عشرة جنوباً ويجري في باطن الارض حيث يصب في البحر الابيض المتوسط ولقد حفروا آبار في ايامنا هذه في كثير من البلاد المشهورة بمصر فخرج ماء صافياً سائغاً للشاربين وهو

احلى من ماء النيل الظاهر واوفق منه للشرب اذ لا يشوبه قذر ولا كدورة

وكأن اللطيف الخبير جعل النيل الظاهري للزرع والنيل الباطني للشرب وماء الآبار المعروفة ليس منه وانما هو من مجارٍ في باطن الارض صغيرة كما قدمنا وماؤها اقرب الينا ولا يخرج في الغالب الا بالآلات فما اغزر نعمه تعالى فانظر كيف اكثر من الماء بحيث انه يحصل في المواضع المقفرة ويمكن استخراجه منها بالحفر بل فى البحر الملح عيون فى اعماقه السفلى وبالجملة فالارض قد جمعت بين الماء العذب والملح وهذا الثاني انواعه كثيرة ومع ذلك قد جعل بين العذب وبينه حصناً حصيناً وهو قدرة الله عز وجل فلم يبغ احدهما على الآخر ولو لا ذلك لفسد النظام ومات الانسان والحيوان فكم فى الارض من مجار متجاورة فهذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج وكثيراً ما يحفر المسافرون على شواطئ البحر الملح فتنبع مياه عذبة فتبارك الله الذي منَع بغى ذلك البحر العظيم على هذا الوشل القليل كما قال الله عز وجل في آية اخرى (مرج البحرين) العذب والملح متجاورين متلاقيين لا فصل

بين الماءين في رأي العين (بينهما برزخ) حاجز من قدرة الله (لا يبغيان) لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة واعلم ان جميع ما في العالم على هـذا النمط لا يتعدى ما رسم له كالليل والنهار والشمس والقمر فكذلك المـاء وقال تعالى في آية أخرى (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات) أي شـديد العذوبة يميل الى الحلاوة (وهذا ملح اجاج) أي شديد الملوحة وقيل مر (وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) أي ستراً ممنوعاً عن الاعين كقوله حجاباً مستوراً

الفصل الرابع

في تفسير ﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾
﴿ ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها ﴾
﴿ من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب وانزلنا من ﴾
﴿السماء ماء مباركاً فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها ﴾
﴿ طلع نضيد رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾
وقوله تعالى ﴿ واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة اني ﴾
﴿ أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت ﴾
﴿ السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى ﴾
﴿ كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ الى آخر الآيات .

ومن الآيات الدالة على عجائب صنع الله عز وجل وقدرته وعظمته قوله سبحانه وتعالى :(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها) بالكواكب (ومالها من فرُوج) شقوق وصدوع (والارض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) جبالاً ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج) أي صنف حسن كريم (تبصرةً وذكرى) أي تذكرة (لكلّ عبد منيب) راجع الى الله تعالى (ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ) أي بساتين (وحَبَّ الحصيد) أي وحب الزرع الذي من شأنه ان يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما

(والنخلَ باسقاتٍ) طوالاً (لها طلعٌ) أي ثمر يطلع ويظهر ويسمى طلعاً قبل ان يتشقق (نضيدٌ) متراكب بعضه على بعض في اكمامه فاذا تشقق وخرج من اكمامه فليس بنضيد وجعلنا ذلك (رزقاً للعباد وأحيينا به) أي بالمطر (بَلدةً ميتاً) فأنبتنا به الكلأ والعشب (كذلك الخروجُ) أي من القبور احياء بعد الموت وليتأمل الفطن الى قوله اول الآية تبصرة وذكرى لكل عبد منيب وقوله رزقاً للعباد فتحتها اشارات تدل على بحور علم عظيمة فليفهم الذكي . ثم شرعت في ذكر معنى الآية وفصلت تفصيلاً عجيباً ومما قالت ان نبات الارض يفهم من تنوعه اولو الالباب معاني ورموزاً ترتاح اليها أفئدة المتبصرين واما الجاهل فليس له منها الا حظ الاتان من البرسيم او الجائع من النسيم فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون فشاربون عليها سيحون وجيحون ثم انهم عن الفكر لمعزولون أولئك هم الجاهلون اقسم بنسيم الصبا والغصن اذا صبا والقطوف اذا تدلت والاطيار اذا تغنت ما لهؤلاء منها الا حظوظ لفظية وآلام معنوية وامراض وأوهام وصفع على الهام واراء ضعيفة وأفكار سخيفة وذلك بخلاف العارفين واولى

اليقين فنفوسهم شريفةوآراؤهم ظريفة واعجب من ذلك واغرب كواكب السماء وشموسها فلقد بهرت ألباب العارفين الا ترى الى سيدنا ابراهيم وما قص الله عنه في كتابه الحكيم وجعل له ثناء حسناً باقياً الى آخر الدهر قال تعالى : (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة) وهي لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنك شيئاً وقد علمني الله علوماً لم تعلوها وآتاني الله ما لم يؤتكم فاتبعوني (اني أراك وقومك في ضلال مبين) بين ظاهر لمن عرف وانما قرعهم بذلك لما كشف الله له عن ملكوت السموات والارض فاراه السموات حتى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب حتى مكان الجنة وكشف له عن الارض وما فيها من العجائب حتى رأى أسفل الارضين كما قال تعالى : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) ومن اطلع على عجائب هذا العالم شهد مبدعها عند كل عجيبة ونظر جماله لدى كل غريبة هكذا كان سيدنا ابراهيم نظر الى الابل والبقر والغنم وعلم انه لا بد لها من مدبر والاجرام العلوية أبدع ما يرى وأجمل وابهى وأبهر فان يكن في هذه العجائب المشاهدة الوهية فليكن فيها (فلما

جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً)وهو الزهرة وكان ذلك آخر الشهر فلما علم انتقالها من مكانها وهو بلا شك امارة الحدوث لا سيما وقد غابت عن الابصار (قال لا أحب الآفلين) فضلاً عن ان اتخذهم آلهـة اذ لا تكون الالوهية الا لمن يحب وهـذا لا احبه لنقصه بالانتقال أولا والمواراة بالحجاب ثانياً وهما امارتا نقص وحدوث والناقص لا يكمل حبه فلا اتخذه الهاً وبينما هو يتفكر في نقص الزهرة وحدوثها ونزول درجتها عنده اذ طلع القمر (فلما رأى القمر بازغاً) وهو لا شـك أبهى وابهر واجمل وأكثر ضوءا (قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر) من النجم والقمر (فلما أَفَلَتْ قال يا قوم اني برىء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين) وقد دلت هذه الآيات على توحيـده سبحانه وتعالى ثم اردفها بعـد ذلك فى الآيات بالنبوة وقررها على أحسن وجه ثم ذكر ما يدل على ان المقصود الاعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى وانه مبدع الاشياء وخالقها حيث قال :

الفصل الخامس

《 في تفسير آية ان الله فالق الحب والنوى الى آخر الآيات 》

(ان الله فالقُ الحبِّ) وهو ما ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما اشبه ذلك (والنوى) جمع نواة ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما اشبه ذلك ومعنى فالق الحب والنوى انه اذا وقعت الحبة أو النواة في الارض الرطبة ثم مرّ على ذلك قدر من الزمان اظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقاً اخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروق ضاربة في الارض فسبحان من اخرج الاشجار النامية والمزارع الخضرة من النوى والحب (يُخرج الحيَّ من الميت) كالفرخ من البيضة والانسان من النطفة (ومخرجُ الميتِ من الحي) كالبيضة من الفرخه والنطفة من الانسان وهذه اشارة الى انه قاهر لملكه لا يحكم عليه ناموس واعلم انصور الممكنات في هذهالمسئلة اربعة : اخراج الحي من الميت وهذا تقدم واخراجه من الحي كالنخلة من النخلة واخراج الميت من الحي كما تقدم واخراج الميت من

الميت كالضوء من الشمس وغيرها وكاخراج الجبال من الارض. فنص على صورتي الاختلاف لغرابتهما وان كانت جميع افعاله غرائب ولكن العامة مولعون بما ظهرت غرابته لهم (ذلكم الله) يعنى ذلك الصانع لهذه الاشياء الله (فأنّى تؤفكون) اي فكيف تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الاشياء وكما انه عز وجل فالق الحب والنوى فالق ظلام الليل عن الصباح فهو كاخراج الحي من الميت فلذلك قال (فالقُ الاصباحِ وجعلَ الليلَ سكناً) يسكن فيه كل ذي روح للراحة (والشمسَ والقمرَ حُسباناً) اى قدر حركتهما في الفلك بحسبان معين (ذلك) المتقدم جميعه من العلويات والسفليات (تقديرُ العزيزِ العليمِ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلماتِ البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة)آدم(فمستقرٌ ومستودعٌ) اى مستقر في القبر بعد الموت ومستودع في الدنيا (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) يدققون النظر (وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) اى كل شيء ينبت وينمو من جميع اصناف النبات (فأخرجنا منه) اى النبات (خضراً)

اى شيئا غضاً اخضر وهو ماتشعب من اصل النبات الخارج من الحبة (ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ)اى حاصلة من طلع النخل اى كيزانه المسماة بالكُفُرَّا (قنوانٌ)جمع قنو(دانية) متدلية ثم عطف على قوله نبات كل شيء قوله (وجنات من اعناب) اى بساتين من اعناب (والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه) والمعنى والزيتون متشابهاً وغير متشابه والرمان كذلك يعني بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم ثم امر الله بنظر الاعتبار والاستدلال فقال (انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعهِ) اى نضجه وادراكه وانه كيف خلق هذا الثمر في اول امره ضعيفاً لاينتفع به من تلك الشجرة التى لاتصلح للأكل ثم بعد ذلك انضجه وصيره غذاء

وبعد ان فرغت من هذه الآية شرعت في ذكر معناها بشرح طويل منها قولها ان الله عدد نعم الليل وانه جعل سكناً ونعم الشمس والقمر وكونهما بحسبان والنجوم والاهتداء بها فى الظلمات براً وبحراً وبديع صنعه في خلقنا فمنا من هو في عالم البرزخ ومنا من هو على ظهر الارض ثم ذكر بعض النعم على هؤلاء الذين على ظهر الارض وهي انزال الماء من السماء

واخراج النبات ليتغذى به الحيوان والانسان بان يخرج منـه حباً متراكباً بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير والقمح والارز والذرة ولم يكتف بذلك بل اخرج لنا فواكه كالنخيل الذي تطلع منه قنوان متدلية واخرج لنا بساتين من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ومثلها في التشابه وعدمه كل ثمر كثمر النخل والعنب فانها مختلفة اختلافاً كثيراً فكما خلق عز وجـل من المـاء والتراب انواعاً كثيرة من النبات مختلفة التراكيب والطعم واللون والرائحة والقدر والمنـافع خلق كذلك من النوع الواحد اصنافاً شتى (فتبـارك الله احسن الخالقين) وقال تعالى في آية اخرى (الله الذي رفعَ السموات بغير عمَدٍ ترَونها ثم استوى على العرش وسخرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرى لاجـل مسمًّى يدبرُ الامرَ يفصـلُ الآياتِ لعلـكم بلقاءِ ربكم توقنون وهو الذي مدَّ الارض) بسطها في رأي العين (وجعـلَ فيهـا رواسيَ) جبالاً ثوابت (وأنهاراً ومن كلّ الثمراتِ جعل فيها زوجينِ اثنين) انظر ما قدمنـا في المكشفات الحديثة [١] (يغشي الليلَ النهـار) أي يلبس

---

(١) انظر في رسالة الزهرة في اول كتابنا نظام العالم والامم ففيها العجب العجاب

النهار ظلمة الليل (ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعرفون
ان لها صانعاً قادراً قاهراً (وفي الارض قطعٌ متجاورات)
بقاع مختلفات مع كونها متجاورة متلاصقة (وجناتٌ من
اعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان) الصنوان جمع
صنو وهي النخلات يجتمعن من أصل واحد (يسقى بماء واحد
ونُفضل بعضَها على بعض في الأُكل) أي في الطعم ما بين
الحلو والمر والحامض (ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون) ثم
قالت قد ذكر العلماء ان في القرآن سبعمائة وخمسين آية فيها تفصيل
هذه العجائب لم تدعْ شيئاً من هذه المخلوقات الا صرحت به
أو اشارت اليه . قال ابراهيم اسمعيني من سورة الرحمن فقالت
الفتاة بسم الله الرحمن الرحيم (الرحمن علم القرآن خلق الانسان)
أي جنسه (علمه البيان) النطق والفهم والافهام حتى عرف
ما يقوله وما يقال له (الشمسُ والقمرُ) يجريان (بحُسبان
والنجمُ والشجرُ يسجدان) النجم ما ليس له ساق من النبات
كالبقول والشجر ما له ساق والسجود الانقياد لما يراد منها
(والسماءَ رفعها ووضع الميزان) قيل هو العدل (ان لا تطغوا
في الميزان) أي لئلا تطغوا في الميزان وقيل ان هذه مفسرة

(وأقيموا الوزن بالقسط) أي قوموا وزنكم بالعدل (ولا تخسروا الميزان) أي لا تنقصوه امر تعالى بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو نقصان ولقد رأيت لحجة الاسلام الغزالي كلاماً حسناً في الميزان فأحببت ان اذكره قال : (الميزان) ما تعرف به حقائق الاشياء ويميز به صحيح العقيدة من فاسدها وهي الواسطة بين السماء والارض حيث قال (والسماء رفعها ووضع الميزان ان لا تطغوا في الميزان واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والارض وضعها للانام) وذلك الميزان سر من اسرار الربوبية لا يعرفه الا الراسخون في العلم [1]

﴿ رياضات علمية وفكاهات أدبية من الحساب والجبر ﴾
﴿ والهندسة والفلك والطبيعة وهي عشرون سؤالاً ﴾

ثم احبا أن تمضي فترة من الزمن لا يذكران فيها الا العلوم الرياضية فسألت في خلالها الفتاة ابراهيم وقالت قد رأيت في كتب العلوم العربية ان فتاة من بنات العرب

---

(١) قال مؤلف هذا الكتاب وقد وضعت كتاب ميزان الجواهر لهذا المعنى على طاقتي وملاحظة الزمن اه

نظرت يوماً فرأت حماماً وارداً ماءً قليلاً فقالت مسرعة : —
ليت هذا الحمام ليه ونصفه الى حمامتيه تمَّ الحمام ميه . وكان اذ
ذاك صياد واقفاً فاصطاده جميعه فوجده عدد ٦٦ فاعجب بها العرب
وقال شاعرهم لاحد الامراء :

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شراع وارد الثمد
قالت الا ليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا ونصفه فقد
عدوا الحمام فالفوه كما نظرت ستاً وستين لم تنقص ولم تزد

فاخبرني كيف نعرف حل مثلها فقال لها نعم وامسك
الطباشير وكتب على السبّورة

$$س + \frac{س}{٢} + ١ = ١٠٠$$

$$٢ س + س + ٢ = ٢٠٠$$

$$٣ س = ١٩٨$$

س = ٦٦ وهو المطلوب

فقالت مامعنى هذا فقال ان الفتاة نظرت الحمام فقالت
ليت هذا الحمام عندي ونصفه عليه مع الحمامة التي عندي ولم
يكن عندها سوى حمامة واحدة يكون مائة فالحمام ٦٦
ونصفه ٣٣ وحمامتها واحدة يكون تمام المائة فقالت لست عن

هذا اسأل وانما هذه مسئلة بسيطة فكيف اطلت في هذه الرموز فقال قواعد العلم تقتضيها وثمرتها تظهر في أمور أرقى من هذه (٢) فقالت اذن اسأل فقال نعم فقالت جاءت لي فتاة من صاحباتي وقالت ان ابي وأخي الاكبر وأخي الاصغر اشتركوا في جواد وثمنه مائة جنيه فكان مامع اخي الاصغر اذا اضيف اليه نصف مامع اخي الاكبر يكون تمام الثمن وهكذا اذا اخذ ما مع اخي الاكبر وثلث مامع ابي يتم الثمن واذا اخذ مامع ابى وربع مامع اخي الاصغر يتم الثمن فما عرفت مامع كل واحد منهم فامسك الطباشير وكتب على السبّورة نرمز لهم س و ص و ع

$$\text{س} + \frac{\text{ص}}{٢} = ١٠٠ \qquad ٢\text{س} + \text{ص} = ٢٠٠ \qquad \text{ص} = ٢٠٠ - ٢\text{س}$$

$$\text{ص} + \frac{\text{ع}}{٣} = ١٠٠ \qquad ٣\text{ص} + \text{ع} = ٣٠٠ \quad (١)$$

$$\text{ع} + \frac{\text{س}}{٤} = ١٠٠ \qquad ٤\text{ع} + \text{س} = ٤٠٠ \quad (٢)$$

$$(١)\quad ٣(٢٠٠ - ٢\text{س}) + \text{ع} = ٣٠٠$$

$$(٢)\quad ٤\text{ع} + \text{س} = ٤٠٠$$

$$(١)\quad ٦٠٠ - ٦\text{س} + \text{ع} = ٣٠٠$$

$$(٢)\quad \text{س} = ٤٠٠ - ٤\text{ع}$$

٦٠٠ — ٦ (٤٠٠ — ٤ ع) + ع = ٣٠٠ (١)(٢)

٦٠٠ — ٢٤٠٠ + ٢٥ ع = ٣٠٠ (١)(٢)

٣٠٠ — ٢٤٠٠ + ٢٥ ع = ٠

٢٥ ع = ٢١٠٠

ع = ١٢٠٠ / ٢٥ = ٨٤

ع = ٨٤

س = ٦٤

ص = ٧٢ فيكون مامع الاب ٨٤ ومامع الاخ الاكبر ٧٢ والاصغر ٦٤ فاخذت القلم وكتبت على الورقة

٦٤ + ٣٦   ١٠٠

٧٢ + ٢٨ = ١٠٠

٨٤ + ١٦ = ١٠٠

فقال ماذا تصنعين فقالت امتحنت هذا الحساب فصح ولكن اريد ان تفيدنى عن هذه الرموز فقال ان هذا علم الجبر فينبغى تعليمه واوقاتنا هذه اوقات فكاهات لا ينبغي فيها شرح العلوم فقالت ان علم الجبر فن جميل قد اشتاقت نفسي اليه فقال هذه المسئلة اسهل مسائله فقالت ان عندي

مسائل كثيرة فان احببت ان تجعل الجواب على قدر السؤال فلك الفضل فقال هات (٣) فقالت عندنا في المكتبة ثلاثة انواع من الكتب شرعية وحكمية وادبية والشرعية ضعف الحكمية والحكمية ضعف الادبية وجميع الكتب ٢٦٦ فكم عدد كل فقال الشرعية ١٥٢ والحكمية ٧٦ والادبية ٣٨ (٤) فقالت اخي الاصغر في المدرسة وسئل عن عمره فقال اذا اضيف عدد ٢٥ الى ٣ امثال عمري واذا طرح ٢٥ من (٨) امثال عمري ينتج عددان متساويان فكم عمره فقال ١٠ فقالت نعم هكذا في ورقة الميلاد (٥) فقالت عندنا ٥٠٠ جنيه اراد والدي تقسيمها بين اخوتي الاربعة بحيث اذا اضيف نصيب الاول الى الثاني كان مجموعها ٢٨٠ جنيها والى الثالث يكون مجموعها ٢٦٠ جنيهاً والى الرابع يكون مجموعها ٢٢٠ جنيهاً فكم يأخذه كل واحد فقال يأخذ الاول ١٣٠ جنيهاً والثاني ١٥٠ جنيهاً والثالث ١٣٠ جنيها والرابع ٩٠ جنيهاً والمجموع ٥٠٠ جنيه فقالت ما ألذّ علم الحساب والجبر (٦) ثم قالت ما العددان اللذان اذا ضرب أحدهما في ٣ والثاني في ٤ يكون مجموع الحاصلين ٤٣ واذا ضرب الاول في ٧ والثاني في ٣ يكون

الفرق بين الحاصلين ١٤ فقال العددان ٥ و ٧ فقالت نعم ٥
× ٣ + ٤ × ٧ = ٤٣ و٧ × ٥ = ٣٥ اذا طرح منه
٢١ يكون ١٤ فقد صح الحساب (٧) ثم قال لها كم سنك
فسكتت برهة ثم قالت نصف مجموع عُمْرَيْ اختي الصغرى
والكبرى فقال وما عمرها فقالت كان عمر اختي الكبرى منذ
سبع سنين مضت ٤ امثال عمر اختي الصغرى و بعد ٧ سنين
تمضي في المستقبل يصير عمر الكبرى ضعف عمر الصغرى
فقال اذن عمر اختك الكبرى ٣٥ سنة والصغرى ١٤ سنة
وسنك ٥ ر ٢٤ سنة فقالت نعم هكذا في ورقة الميلاد فقال
لعل لك علماً بالجبر فسكتت فعلم انها تريد اختباره فقط وتتجاهل
(٨) ثم قالت انا واختاي الكبرى والصغرى وضعنا نقوداً في
تجارة و بعد سنة صار مجموع المقادير بالارباح اربعمائة جنيه
وبتوزيع هذا المبلغ علينا اخذت انا قدر اختي الصغرى مرتين
وزيادة عشرين جنيهاً وأخذت أُختي الكبرى بقدر ما اخذنا
معاً فقال اخذت الكبرى ٢٠٠ جنيه وأنت ١٤٠ جنيها
والصغرى ٦٠ جنيه وهذه مسئلة بسيطة جداً حسابها يسير (٩)
فقالت كيف تقسم عدد ٥٢٥ الى قسمين لو قسم اكبرهما على

٢٥ واصغرهما على ٣٠ كان مجموع الخارجين يساوي ٢٠ فقال نعم الاكبر ٣٧٥ والاصغر ١٥٠ لان ٣٧٥ على ٢٥ = ١٥ و١٥٠ على ٣٠ = ٥ والمجموع = ٢٠ (١٠) فقالت المسافة بين محطتين ٥١٢ كيلو متراً وقام من احداهما قطر في الساعة ١١ بالافرنكي قبل الظهر قاصداً الثانية وهو يقطع ٤٠ كيلو متراً في الساعة الواحدة ثم قام من المحطة الثانية قطر آخر في الساعة الاولى بعد الظهر قاصداً الاولى وهو يقطع ٣٢ كيلومتراً في الساعة الواحدة والمقصود معرفة ساعة تلاقيهما وبُعد نقطة التلاقي عند كلتا المحطتين فقال يلتقيان بعد ٦ ساعات ونقطة التلاقي تبعد عن المحطة الاولى ٣٢٠ كيلو متراً وعن الثانية ١٩٢ كيلو متراً فقالت ارجوك توضيح الجواب فقال ٥١٢ — ٨٠ اعني ٤٣٢ = ٤٠ س + ٣٢ س وس هي رمز للزمن و٧٢ س = ٤٣٢ فيكون س = $\frac{٤٣٢}{٧٢}$ = ٦ وهو زمن التلاقي بالساعات وبضرب ٦ في ٣٢ يحصل ١٩٢ هي ما قطعه الوابور الثاني و٦ × ٤٠ = ٢٤٠ ويزاد ٨٠ فيكون ما قطعه الوابور الاول ٣٢٠ اهـ . ثم سألها قائلاً (١) ما مقدار محيط الكرة الارضية عند خط الاستواء بالامتار (٢) ومامقدار نصف قطر

الارض بالامتار ايضاً (٣) وما مقدار سرعة الحركة الارضية في مصر في الثانية الواحدة وما مقدارها في خط الاستواء وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا (٤) وقال العلماء ان دوران الارض كلما زادت سرعته نقص ثقل الاجسام عليها على حسب السرعة فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الارض حتى يعدم الوزن في خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين (٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوي (٦) وما مقدار ارتفاعه بالامتار (٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة (٨) في اي درجة من درجات العرض يصير اطول نهار ٢٤ ساعة واقصر ليل معدوم بالمرة فيكون الشروق مع الغروب فقالت الفتاة عندئذ عجباً للقدرة الباهرة والصنع العجيب (٩) مقدار حجم الشمس وما مقدار نصف قطرها (١٠) وما مسافة بعدها عنا وما مقدار سرعة الضوء في الثانية الواحدة فهذه عشرة اسئلة فشرعت الفتاة تجيبه فقالت (١) اما مقدار محيط الكرة الارضية عند خط الاستواء فهو ٤٠٠٧٦٦٣٠ مترا (٢) ومقدار نصف قطر الارض ٦٣٦٦١٩٨ مترا (٣) ومقدار سرعة الحركة الارضية في خط الاستواء ٤٦٥ متراً في الثانية وفي مصر ٤١٩

وفي باريس ٣٠٥ متراً (٤) اذا صارت سرعة الارض قدر اصلها ١٧ مرة ينعدم الوزن في خط الاستوآء تماما فما اقدره سبحانه على هذا الحساب العجيب الذي به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذي حفظت به الموازين وغيرها ولو اسرعت عن هذا لما بقي عليها سكان البتة « إنَّ الله يمسكُ السموات ِ والأرضَ أنْ تزولاَ ولئنْ زالتا إِنْ أمسكهما مِنْ أحدٍ مِنْ بعدِه انهُ كان حليماً غفوراً * وَلوْ يؤاخذالله النَّاسَ بما كسبوا ماتركَ على ظهرِها من دابة وَلـكنْ يؤخرهمْ الى اجلٍ مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرونَ ساعة ولا يستقدمونَ » فقال لها اظنك فهمت ان الأرض تخرب بهذه الطريقة فقالت لا ولـكني أظن فقال ان قيام الساعة وخراب العالم أمر مغيب عنا ولـكل قوم فيه رأي والحق عندالله (راجع ميزان الجواهر تجد الموضوع مستوفي) (٥) ثقل الهوآء على الارض يعادل ثقل ١٠ امتار و ٣٣٤ مليمتراً من الماء وهذا عام في جميع سطح الـكرة الأرضية فـكاننا في بحر من الماء يبلغ ماؤه فوقنا ماذكر فالانسان كسمك في قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار أعنى زيادة عن ١٠ امتار ولو كان بدل هذا الهوآء زئبق لـكان

٧٦ سنتيمترا اعنى نحو ٣/٤ المتر فكانت الناس تخوض فيه خوضاً ولا يغطيهم فسبحان الحكيم فى صنعه الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا وقد حسب هذا الثقل فوجد انه ٥،٢٦٣،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ تقريباً وهذا بالطونلاته (والطونلاته عبارة عن الف كيلو جرام وهى ٢٢ قنطار و٢٢ رطلا و٣٢ درهما) (اعنى ٥ كترليونات و٢٦٣ ترليوناً تقريباً ولو كان نحاساً لكان عبارة عن ٥٨٥ ألفاً كلها مكعبات من النحاس ضلع المكعب الواحد ألف متر فما اجمل العلم الذي به عرفنا مقدار الهواء نحاساً وماء وزئبقا « وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » ولله الهندسة والحساب والفلك والجبر فقد اظهرت لنا محاسن هذه الحكم البديعة العجيبة وبهذه النواميس جرى هذا الكون كله في الفضاء والمجموعة الشمسية في الكون والنجوم في مداراتها والطيور في هوائها والحيتان في بحارها وهكذا السفن (ان ربكم لرؤفٌ رحيمٌ) (ألم ترَ ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور واذا غشيهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا الله مخلصين له الدين فلما

نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختَّارٍ كفور يا أيها الناس اتقوا ربكم) (٦) ارتفاع الهوآء بالامتار ٤٨٠٠٠ متر على حساب العلامة بيوت وهذا المقدار تقريباً $\frac{١}{١٣٠}$ من نصف قطر الارض ٤٨٠٠٠ اعنى ان الارض لو ادخل فيها محور من حديد وزج به حتى خرج من الجهة الاخرى فان ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من ٦٥ من هذا المحور (٧) الزئبق أثقل من الهوآء بمقدار ١٠٤٦٠ مرة اعنى اننا اذا ملأنا زجاجة من الزئبق فثقله يعادل ثقل الهواء الذي في عشرة آلاف واربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجه (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ومن العجيب ان في النوع الانساني من بلغوا في اللطافة والكثافة في الاخلاق والافهام الى هذه النسبة فكم بين اعظم الانبياء واصغر الجهلاء وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام لو وزن ايمان ابي بكر بالامة لرجحها ولعمري انها لنسبة متفاوتة جداً (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فان التفضيل في المعنويات أوسع جداً من التفضيل في المحسوسات (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) أي في الدنيا (وللآخرة

اكبر درجات وأكبرُ تفضيلا) فان هذا عالم الكثافة فدرجاته محصورة وذاك عالم الطف وأرق وأجمل فدرجاته أوسع واكبر فيا عجباً لهذه الحكم الباهرة الخفية الظاهرة خفيــة على قوم لا يعقلون وظاهرة لاولى الالباب « الذين يذكرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارضِ ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً » العوالم اما كثائف واما لطائف واما متوسطة بينهما فالكثائف هي التي رأيت التفضيل فيها كالزئبق والهواء والمتوسط كالظلمات والنور « الحمــد لله الذي خلق السمواتِ والارضَ » هذه هي الكثائف «وجعل الظلماتِ والنورَ » هــذه هي المتوسطة واما اللطائف فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين. والدرجات في الكثائف ما رأيت وفي المتوسطة ما ترى من اختلاف أنواع الانوار الى حد يفوق التصور في القلة والكثرة من ضوء مصباح ضعيف الى ضوء الشمس وبينهما درجات لا تتناهى وهي أوسع من درجات الكثائف والطف وأرق وابهج واختلاف درجات الناس في عقولهم وأميالهم أوسع من اختلاف الاضواء والانوار والظلمات » حتى قال الشهرستاني في كتاب الملل والنحل ان

كل فرد من النوع الانساني يكاد يكون نوعاً مستقلاً » وكما صعب علينا تصوره ابرزه المحيط بالعالم في قالب ضرب الامثال فقال «قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » وسمى خاتم الانبياء شمساً رمزاً لما علمته « ويضربُ الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم » وللبعد العظيم بين افراد الانسان في عالم الاخلاق والعلوم ورد قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحُوا يفسحِ اللهُ لكم واذا قيل انشزُوا فانشزُوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » قال ابن عباس بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والارض وهذا من ضرب الامثال وتعبير المعقول بالمحسوس وما أرق تعبير ابن عباس وما الطفه فتأمل كيف ذكر المسافة في تقدير هذه الدرجات المذكورة بعد التفسح وتوسيع مجلس النبي صلى الله عليه وسلم او القيام وانه بالتواضع تكون رفعة الدرجات وبضدها تتميز الاشياء « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق » فالمتواضع الذي من أخلاقه توسيع المجالس والاحسان في المعاملة يرفعه علمه والمتكبر يعيش بليداً

ويموت قليل العلم لضيق نفسه وتكبرها (٨) يكون اطول نهار ٢٤ ساعة في الدائرة القطبية التي في درجة ٦٦ و٣٣ دقيقة من درجات العرض في الشمال والجنوب وحينئـذ ينعدم الليـل بالكلية (٩) حجم الشـمس قدر حجم الارض ١٦٢٨٠٠٠٠ ونصف قطرها ٦٩٢٠٠٠ كيلومتر (١٠) اما بعدها عنا فهو ٣٧ مليوناً من الفراسخ والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٧٥ الف فرسخ ثم ان ضوء الشمس حين يشرق منها لا يصل لنا الا بعد ٨ دقائق و ١٨ ثانية فلله الحـكمة البالغة فما اعظم هذه البدائع وما اجمـل العلوم وما ابهجها وما ألذها وما يعقلها الا العالمون « قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تُغْني الآياتُ والنذُرُ عن قوم لا يُؤمنون » ومن لم يحركه العود واوتاره والربيع وازهاره فهو فاسد المزاج يحتاج الى العلاج ومن لم يحرك قلبه هذا الجمـال ولم يصبُ الى هذا الـكمال وهو في هذه الدنيـا فلا لذة له بل هو كحمار يدور في رحاه أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون اللهم افتح بصائرنا لنرى جمال هـذه المبدعات الجميلة ونتأمل هذه المحاسن الرائقة واللطائف والرقائق

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهم

حسن صنعك يا مبدع هذا الكون ولعمري ان بهجة العلماء الحكماء ولذتهم وشكرهم لخالقهم انما يكون بالاطلاع على تلك المحاسن الباهرة العجيبة التي لا تتناهي وبدونها لا ثمرة لحياة العالم ولا بهجة له قال سيدنا الامام الشافعي رضي الله عنه لو لا ساعة قبيل الفجر ما احببت الحياة وذلك لانه فيها تظهر له عجائب هذه الحكم اثر العبادة وكان الامام النووي رضي الله عنه يبيت ساهراً في التأليف والتصنيف ويقول في آخر الليل

اذا كان هذا الدمع يجري صبابة

على غير ليلى فهو دمع مضيع

ولعمري ان هؤلآء العلماء هم الذين عرفوا كيف تكون الحياة والعلماء الناظرون في الكون من هذه الوجهة العالية هم اقرب الى الانبيآء صلوات الله وسلامه عليهم وسواهم كالمقدمات لهم وبينهم درجات متفاوتة ألا ترى انه يقول انما

يخشى الله من عباده العلماء بعد ذكره انزال الماء من السماء
واخراج الثمرات به وذكر اختلاف الالوان في جميع الاشياء
وذلك في سورة فاطر ثم قالت ان هذا الجمال في الكون يقوم
دليلا على الله ووحدانيته فقال وكيف ذلك فقالت ما رأينا جميلاً
الا وهناك ارقى منه كما انه فوق كل ذي علم عليم فان قلنا الحسن
في اوروبا فقد ظهر ان فاطمة التونسية حازت وسام الحسن
والشرف في معرض باريس وكانت النظرة لها بعشر فرنكات
كما ذكره استاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله في بعض
مؤلفاته ثم امل هناك ماهواجمل واحسن وابهى فالليالى حبالى
يلدن كل عجيبة فاجمل كل جميل هو الله وحده كما انه اعلم كل
عليم وكما انه احسب كل حاسب وهو اسرع الحاسبين فالجمال
من مميزات مبدع هذا الجمال وحيرتنا في ذوي الجمال دليل
وحدانية من له كل حسن وجمال فلم نجد احداً في العالم ذكر
ان اجمل المخلوقات فلان الا بنسبة تقريبية وغاية ما في قول
عشاق يوسف (ما هذا بشراً ان هذا الا ملكٌ كريم) انهن
شبهنه بالملائكة فى جمالهم وقد قطعن ايدهن فما بالك لو رأين

الملائكة الذين ألحقن يوسف بهم من باب التشبيه البليغ المحصور واذا حار عشاق الجمال وتاهوا فيمن هو الارقى ولكل شيء نهاية فاذن الى ربك المنتهى

﴿ معجزات القرآن وعجائبه في المكتشفات الحديثة ﴾

ولما اجابت الفتاة جمال على ماتقدم من المسائل الحسابية الفلكية الطبيعية اعجب ابراهيم ما ادمجت فيها من الحكم الكونية واللطايف العملية فأثنى عليها وقال لها لقد اعجبني ما سمعت من اعجابك بالقرآن والسنة والعلوم العقلية والفلسفية ومطابقتك بينها مطابقة تسر المسامع وتقر الاعين وتشرح الصدور واني ليسرني ان تذكري ما تعلمينه من معجزات القرآن المكشفة حديثاً في العلوم الجديدة فان الحق انه يجدد اعجازه الى آخر الزمان واذا كانت المدنية كلها الآن ترقت فاين حظ القران منها ولا جرم ان تجدد الاعجاز من لوازم قوله تعالى : (انا نحنُ نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فقالت الفتاة

ان القرآن والسنة يتجدد اعجازهما كلما تمادى الزمن والذي اعلمه من ذلك :

(١) قوله تعالى « ويخلقُ ما لا تعلمون » بعد قوله تعالى « والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوُها وزينة » اذ لم يقل ويخلق ما لا تعلمون في القرآن كله الا بعد ذكر ما يركب ففي الآية وحدها اشارة الى ماسيحدثه في المستقبل من مدهشات ما يركب ويسير بالرسائل من البخار والكهرباء والسفن الحربية والطائرات والتلغراف بلا سلك او به وكل هذه اما حاملة رسالة أو وقراً وهي تختص بالدواب عادة وقال أيضاً « وآيةٌ لهمْ أنا حملنا ذُريتهم في الفلك المشحون وَخلقنا لهم من مثله ما يركبون »

(٢) « ألم تر الى ربك كيف مدَّ الظلَّ ولو شاء لجعله ساكناً » وقد سكن الظل بواسطة الفوتغرافية (آخذة الصور)

(٣) الموازنة في ذكر « وكل في فلك يسبحون » بعد ذكر الشمس والقمر والأرض وجعلها بعد الشمس والقمر وذلك لاجماع الامم على حركتهما واما الارض فقد ذكرت

قبلهما ايناساً لمن يعتقد سكونها اوجود الفصل بالشمس والقمر ولمن يعتقد دورانها بدخولها في يسبحون

(٤) ذكر السفن في قوله تعالى « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفُلْكِ المشحُون » بعد الكواكب والأَرض اشارة الى ان الجميع من واد واحد فالسفن في البحر كالشمس والقمر والارض في الاثير وهي المادة المالئة للفضاء وكأن الكواكب كلها والارض سفن في بحر الاثير « فقال لها وللأَرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين »

(٥) (اقتربت الساعة وانشق القمر) (اولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها) اشارة الى ماقيل ان القمر انفصل من الارض فنقصت وانشق هو منها

(٦) (اولم يرَ الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما) قالوا ان الشمس والارض كانتا شيئاً واحداً فانفصلتا

(٧) مادة العالم الاثير وهو مالئ للكون لم يعرف الا بالعقل لدقته عن الحواس (ثم استوى الى السماء وهى دخان)

(٨) (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشرٌ

تنتشرون) كشف ان حواس الانسان واعضاءه كلها تراب صار نباتاً وحيواناً ودخل في الجسم فصار هو نفس الانسان

(٩) «بل هم في لبس من خلق جديد» قد كشف ان جسم الانسان يتجدد في كل مدة نحو شهر فتذهب مادته ويؤتي بدلها بالمواد النباتية والحيوانية والمعدنية فتصير بشراً سوياً منتشراً «ثم اذا انتم بشرٌ تنتشرون»

(١٠) «حُرِّمت عليكم الميتةُ والدم ولحمُ الخنزير» قد كشف ان الخنزير منشأ الدودة[1]

(١١) كراهة اكل لحم بعض البقر لانه منشأ السل

(١٢) وجوب غسل أثر الكلب سبعاً فقد كشف انه سم ومثله الهر كما في بعض أحاديث الجامع الصغير

(١٣) المستنقعات منشأ المكروبات القتالة للانسان وقوله عليه الصلاة والسلام لا يبولنّ أحدكم في الماء

وفي الخنزير ديدان لا تؤثر فيها الحرارة في درجة من درجاتها ولقد اخبرني حضرة استاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله عن دولة الغازي مختار باشا ان جماعة ماتوا بعد ان أكلوا فبحث الاطباء عن سبب موتهم فاذاهم أكلوا لحم الخنزير فأماتتهم مكروباته وهو بلامين من هذه القاعدة وفي مقدمة ميزان الجواهر فوائد في هذا أيضاً

الدائم ولا يغتسل فيه فبالأول يزيد ضرره وبالثاني يصيب المغتسل الضرر بالمكروب

(١٤) ورد في السنة ان الطاعون من وخز الجن وقد ظهر انه حقاً من الحيوانات المكروبية التي هي قسم من أقسام الجن في الحديث الذي في كتابنا ميزان الجواهر نقلاً عن الاحياء حيث قال فيه وصنف كالهواء

(١٥) الامر بكثرة الاغتسال والوضوء وهذا أعظم داع لعدم الدعاوي وامتلاء السجون كما قاله العلامة بنتام الانجليزي مشرعهم الشهير الذي درس قوانين الامم كلها وقال من واظب على اغسال الدين الاسلامي لم يصدر منه ذنب ولا جريمة فالنظافة من محاسنه كما استحسن أيضاً منع الخمر منعاً باتاً في جميع الكرة الارضية وعده من محاسن هذا الدين واليه الاشارة قوله تعالى « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

(١٦) ظهور الازدواج في جميع النبات « ومن كلّ الثمرات ِ جعل َفيها زَوْجين اثنين » «وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج »

(١٧) « وأرسلنا الرياح لواقح »قد علم مما قدمناه ان الريح هي الملقحة لاكثر النبات

(١٨) ظهور الجدري في اصحاب الفيل بالمكروب الذي دل عليه قوله تعالى « وأرسلَ عليهم طيراً ابابيل » أي متتابعة مجتمعة « ترميهم بحجارَة من سجيلٍ » أي من الطين الذي يتماسك على سطح المستنقعات

(١٩) ظهر ان كل شيء له مقدار محدود بالتحليل الكيماوي (وكلُّ شيء عنده بمقدار)

(٢٠) (ويوم يُنفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض إلا من شاءَ اللهُ وكلٌّ أتَوْه داخرين وترى الجبال تحسبهَا جامِدة وهي تمُرُّ مرَّ السحاب صنْعَ اللهِ الذي اتقن كلّ شيءٍ) معلوم مماقدمنا فى المجالس السابقة والمذاكرات ان علماء الهيئة قسمان المتقدمون وهم يوافقون ما يظهر للنظر العام من ثبوت الارض ودوران الشمس والمتأخرون وتخالف

(تنبيه) يعلم اخواني ان بعض ما ذكر في هذه المحاورة على سبيل الاحتمال او المجاراة فمن وجد شيئاً غيرما ذكر فلا يظنني احتمه وليحمله على اني اجوزه فقط لا انه مذهب لي فمن طعن بعد ذلك فليس له عذر

هيئتهم ما يعرفه العامة فيحكمون بدوران الارض حول الشمس وهذا المقام قد أوضحناه سابقاً بما لا مزيد عليه وقدمنا ان هذه كلها دائرة على الظن وان رأينا ان الثاني أقرب الى الظن من الاول وان القرآن لم ينزل لتحقيق مثل هذه المسائل لانه جاء لما هو اجل من هذا اذ هذه الاشياء اقرب شبهاً الى الصنائع وقلنا ان اشكالها على نوع الانسان دعا الى نموّ الافكار فهو المقصود اذ هو فى عالم التربية ثم نقول الآن العجب كل العجب من وضع الآية التي نحن بصـدها وضعاً متقناً على حسب ما قدمنا وبيانه ان قوله ويوم ينفخ في الصور الى قوله داخرين أي صاغرين مسوقة ليوم القيامة ثم قوله بعدها وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب حملها العلماء على يوم القيامة يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة ولشدة عظمتها ترى كأنها واقفة ولا ريب ان هذا التفسير يناسب من علقت في ذهنه الهيئة القديمة من ايام نقل الفلسفة اليونانية الى الآن فناسب ما قبل الآية وصدرها اول الامة واذا نظر الى قوله بعدها صنع الله الذي اتقن كل شيء نجد ان خراب الارض ينافي الاتقان وانما الاتقان يناسب سير الارض وجبالها ثم يراها الانسان

مع شدة حركتها ساكنة لا تتحرك فهذا هو الاتقان العجيب وانما لم يقل وترى الارض لانها على هذا الرأي لا ترى إلا متحركة مع خروج الانسان بالمرة عنها وهذا مستحيل في الدنيا اما الجبال فرؤيتها ممكنة ثم انظر كيف تسير الارض بتلك الحركة العجيبة حول نفسها وحول الشمس ونحن نراها ساكنة لم يحس أحد بحركتها من آدم الى الآن فهذا هو الاتقان وهذه هي الحكمة وهذا هو الوضع العجيب الذي جمع بين الحركة والسكون ففيه تنبيه على ان العالم كله في حركة مستمرة مع انه يرى في سكون بل الانسان يرى ساكناً مع انه لا يقف فكره لحظة لا في اليقظة ولا في المنام اذ قوته المخيلة لا تقف حركتها لحظة ولا تقف الا بالموت وهكذا الامة في حركة مستمرة اما الى صعود واما الى هبوط واما الى استمرار فالصعود باختراع الجديد والهبوط بهدم سور المدنية الحقة والاستمرار في الامور الدنيوية على ما عودهم الآباء بلا فكر جديد، فالعالَم كالعالِم وكالانسان والامة كل في حركة مستمرة ويرى في الظاهر كأنه ساكن دائم السكون ولم نذكر هذا على انه تفسير للآية ولكن لمناسبة العالم بعضه بعضاً وانما نحن في ذكر

الجبال وانها على الارض وترى انها ساكنة مع انها على الهيئة الجديدة سائرة دائماً معها وهذا هو غاية الاتقان ويحق لنا ان نقول (صنع الله الذي اتقن كل شيء) بعد ما ذكر هذا ما خطر ببالي الآن

واني لأعجب جداً من هذا الوضع المتقن في الآيات وكيف ناسب صدرها صدر هذه الأمة وعجزها متأخريها اي العصريين المعاصرين للأور وباويين فلم تصادم الآية مذهب السابقين واشارت لمذهب المتأخرين [١] ولعمري هذه هي

---

(١) فيكون ملخص المعنى سيقوم من فى السموات ومن فى الارض فزعين الا من شاء الله وهم جميعاً صاغرون ولا ريب ان السموات والارض اكبر ممن فيهما واليه الرمز بقوله (لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس) واذا كانت السموات والارض اطاعتا حتى قال فيهما (قالتا أتينا طائعين) فكيف لا يأتيه كل من فيهما صاغرين اذلاء

أو لا يرون ان الارض التي هم عليها وما فوقها من الجبال منقادة له مسخرة فى هذه الحياة الدنيا لا يمكنها الاستقرار لحظة من الزمان فترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب فاذا كانت الارض التي خلقها اعظم من خلقكم أنتم فى الحياة الدنيا خاضعة له مع جبالها وانتم عليها فكيف بكم انتم وحدكم فلا بد من اتيانكم صاغرين يوم القيامة اطرق كرا ان النعام فى القرى اه

الحكمة العجيبة جعل نظام كلامه كنظام ملكه فما اتقن الفعل وما احسن القول سياستان متشابهتان ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور وعندى ان هذا وامثاله هو الاعجاز والحكم لا التأكيد بان ولا الجناس والطباق ولا غيرهما الا فليتق الله العلماء وليبينوا للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ومن عجيب الاتقان نفس هذه الآية فكفى باتقانها واحكامها برهاناً ساطعاً ومعجزة لمن درس العلوم وذاق لذة المعارف ولعمرى لا يعقل هذا الا العالمون فتأمل كيف ناسب مراعاة مذهب المتقدمين سابق الكلام ومذهب المتأخرين لاحقه وكيف ثم كيف قال بعد اربع آيات فى آخر السورة (وقل الحمدلله سيريكم آياته فتعرفونها) (٢١) علم ان ان الارض متزنة بالجبال ولولاها لاضطربت فى سيرها (وألقى فى الارض رواسي أن تميد بكم) (٢٢) قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون والحديث الذي رواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول لا اله الا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقتربَ

فُتح اليوم من ردم يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه وحلق بأصبعيه الابهام والتي تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث اه

فقد اتسعت حلقة فتح الردم بعده عليه الصلاه والسلام وكان ما كان مما ذكر مفصلاً في كتابنا نظام العالم والامم فقال ابراهيم ان هذا المقام يستحق التوضيح ولا يكفيه الاجمال فانى رأيت كثيراً من العقلاء واهل الدين يحجمون عن التكلم فيه فقالت ان هذه المسئلة اعظم معجزة ومجلسنا هذا لايسع ذكر ماعلمناه من تعيين زمان خروجهم وفتح السد مصداقاً لهذا الحديث وجغرافية بلادهم وحدودها وتاريخهم وصفاتهم وما ذكره المؤرخون فيهم من العرب والافرنج ومكاتبات الملوك في شأنهم وآراء كبراء العلماء وظهور معجزات للنبوة أثناء الكلام فيهم وحقيقة كون اولهم بالشام وآخرهم بخراسان وكونهم لايدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس وهذان واردان في الحديث ايضاً وكالحديث الوارد في رئيسهم كل هذا اظهره التكشيف وكمعنى قوله تعالى من كل حدب ينسلون وكيف ظهر في الخارج وكيف اقترب الوعد الحق وما هذه

الدعوى التي يهرف بها الجهلة من العجز والكسل بسبب ظنهم قرب الساعة وقيامها عليهم وهل يفندها القرآن او هم بفهمه جاهلون فهذه خمسة عشر سؤالاً لا يمكن ايضاحها الان فأن اردت استيفائها فعليك بنظام العالم والامم [1] (٢٣) قوله تعالى ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ومعلوم في الاصول ان الذين اسم عام لا يخص من نزلت الآية بسببهم وظهر في كل زمان لاسيما هذا الزمان ان كثيراً منهم يدخلون بسرعة في الاسلام بخلاف اليهود باجماع فلاسفة الامتين وفي امريكا العجب العجاب وكذلك في اوروبا وسيأتي الزمان المستقبل باعجب من هذا في الاعجاز وقال تعالى لعيسى وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة الآية (٢٤)

---

(١) هو كتاب لنا سيطبع ان شاء الله قريباً وهذا الموضوع مستوفي فيه وقد ظهر فيه ولله الحمد ما كان خافياً احقاباً طويلة في هذه المسئلة واتضحت فيه معجزات للنبوة لم تعلم الا به واول من فتح لنا هذا الباب استاذنا العلامة الشيخ حمزه فتح الله وهو يلقي علينا الدرس بمدرسة دار العلوم ونبهنا لهذا الحديث وقد كتبت مقالة أدرجت في مجلة الهلال جواب سؤال وارد من أحد أدباء الهند عن هؤلاء الامم واين هم مع ذكرهم في الكتب السماوية فاقرأ هذا كله فى كتاب نظام العالم والامم اه

تشتت اليهود في اقطار العالم وعذبهم الفرنساويون في الجزائر وغيرها وطردهم الروس وهم مبغضون في كل دوله (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب (٢٥)ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أُتيتم من العلم الا قليلاً قد اجمع علماء اليونان والعرب واوروبا ان علم النفس إنما يكون بعد الرياضات والطبيعات وهاك آخر ماوصل اليه البحث الى وقتنا هذا من ترتيب العلوم بحيث ان المتأخر لايفهم الا بعدالمتقدم(١) العلوم الرياضية (٢) العلوم الفلكية (٣) العلوم الطبيعية (٤)علم الكميا (٥) علم وظايف الاعضاء (٦) علم النفس والمنطق (٧) علم الاقتصاد السياسي (٨) علم تكوين الشعوب (٩) علم تمييز الجمال(١٠)علم ماوراء الطبيعة ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح واما علم النفس فانما هو ظواهرها لا حقيقتها (١١) علم الاخلاق (١٢) علم الحقوق (١٣) العلوم السياسية

فانت ايها الاخ ترى من هذا الجدول ان علم الروح في المرتبة العاشرة مع العلم الالهي المعبرعنه بما وراء الطبيعة او الفسلفة الاولى او العلم الاعلى والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة

العرب ولا ريب انهم ابعد الناس عن هذه العلوم فلا يمكنهم فهم الرياضات العليا.فضلا عن الروح فلذلك قال (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) اى ولا يفهم الروح الا من درس علوماً كثيرة وما اعجب قوله من امر ربي اذ علم الروح وعلم الالوهية في الدرجة العاشرة (٢٦) قال عليه الصلاة والسلام صنفان من امتي في النار لم أرهما قوم معهم سياط كاذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات الخ فقد ظهرت تلك السياط بعد النبوة بازمان وهو الكرباج (٢٧) ورد ان الذباب فيه داء وقد ظهر هذا بالتكشيف (٢٨) قال تعالى (ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهنَّ درجة واللهُ عزيزٌ حكيم) قد قارن علماء اروبا بين النساء المتعلمات وبينهن حين لم يتعلمن فاستنتجوا ان المراة كلما قدمها التعليم لتلحق الرجل اخرتها الحكمة الالهية في القوة والادراك والجسم فصارت على الثلث منه في مجموع قواها فكلما قدمهن التعليم اخرتهن الحكمة على مقدار ذلك لتبقى درجة الزيادة محفوظة بين الرجال والنساء والا لاختل النظام بتساوي الدرجتين ولذلك قال بعدها والله عزيز أى غالب حكيم فيما

صنع . اقرأ المرأة المسلمة لصديقنا القاضل محمد افندي فريد وجدي فقد ذكر هـذا وانه قامت قيامة فلاسفتهـم الآن ينذرون قومهم الخطر (٢٩) ان الفونجراف المصرية داخل في عموم(قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء) (٣٠) قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية) اما آيات الآفاق فهى جميع ما كشف في العلوم الجديدة في الارض والسماء بعد ان كانت منحصرة في كواكب معـدودة من السيارات وهي ٧ مع جهـل الثوابت وعناصر محدودة مع تكشيف الكواكب السيارة وعرف كثير من الثوابت وهكذا العناصر بعد ان كانت ٤ وصلت الآن الى نحو ٧٠

واما آيات الانفس فان للانسان جسماً وروحاً اما الجسم فاظهرته اشعة رنتجن التي هي عبارة عن اضواء شرر الكهرباء المنحصرة في آلات تسلط على الجسم فتكشف الاعضاء من الداخل وتظهر الدورة الدموية من وراء الحجب كأن هـذه اجسام شفافة لاتحجب ماوراءها ممـا يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقاً لقوله في هذه الآية وفي انفسهم. ومعلوم

ان في ظرفية اي الآيات المظروفة في نفوس النوع البشري والمراد بها هنا ما يشمل الجسم

واما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسي الذي تناقلته الافرنج عن الهنود

فلما سمع ابراهيم ما قالت الفتاة اعجبه بداهتها وحسن فهمها ولكنه لاحظ ان بعض هذه التفاسير جاء على سبيل الاحتمال او المجاراة فسألها عن ذلك فقالت نعم . ثم قال لها ياسيدتي عفواً عني فيما كلفتك به من النصب والتعب في هذه الاسئلة فاني كثير الشغف جداً بالنظر في هذين الامرين وهما هذا الكون المؤلف من العناصر وهذه المعاني المؤداة بالحروف التي بها نسمع القرآن الكريم وغيره من الكتب

ومن شدة ولوعي بالغرائب احنُّ كثيراً واطرب للملاءمة بينهما واتفاقهما وسيرهما بسنن واحد لعلمي ان الانسان بهذا الشوق يصل الى الحكمة العالية والعلوم الغريبة ولا يزال يترقى ما كرّ الجديدان وما تعاقب الملوان فقالت احب ان اسمع منك مقالاً شافياً في عجائب العناصر والحروف فقال :

الكون عبارة عن وضع عجيب وترتيب حكيم ادهشنا

صنعه وبهرنا وضعه وعجبنا كل العجب من اتقانه وحسن بنيانه نجوم لامعة وشموس ساطعة وبدور طالعة وسماء واسعة وهواء وسحاب ونبات وماء أتدرين كيف كان أصله ؟ أَصله مادة اثيرية لا ترى ولا تحس ولا تشم ولا تذاق ولا تلمس عرفها فحول العلماء المتأخرين مع اشارة المتقدمين فتكونت وتطورت بتداول السنين وكرورها ومرورها ملايين وبلايين فانظري أيتها الفتاة ما ترين فيها من جمال وبهاء وحسن وحكم بالغة (وتمت كلمة ربك) ويا للعجب كيف انقسمت الى اشكال متباينة وصور متعددة واحوال متباينة ثم سكت برهة وظهر عليه أثر العجب ففطنت الفتاة الى ان العجب ادهشه فانتظرت رجوعه للكلام ولم تنطق ببنت شفة ثم قال لقد اخذني الآن الدهش والبهر من النظر في هذه الكائنات

واذا كان اصلها هذا الجسم البسيط وهو الاثير الذي أشير اليه بقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبعَ سموات في يومين وأوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) اشارة الى ان هذه

المادة وهي الاثير تنوعت وتطورت وتشكلت بصور مختلفة حتى وصلت الى سموات وارض وماء ونبات وحيوان وانسان واجسام مظلمة وأخرى مضيئة وعالم لطيف وآخر كثيف فلو نظرنا الى الاغذية والملابس كالقمح والقطن لرأينا المواد الداخلة في كليهما واحدة ولكن العجب كل العجب في ان اختلاف المقادير في تلك العناصر كالجير والبوتاسا والسليكا جعل هذا غذاء وهذا ملبساً وما أحسن العلم وما ألذ الفهم الذي أرانا ان ملابسنا واغذيتنا من عناصر واحدة اختلفت مقاديرها فاختلفت المنافع والاغرب من هذا انها جارية على نظام محدود وقسطاس مستقيم وفي الارض نحو مئات الوف من النبات كلها تجتذب اليها العناصر من الارض وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم والروائح والالوان والمقادير والاشكال والاغذية والملابس والادوية (ان ربك هو الخلاق العليم) فلننظر ما الذي انتجت هذه العوالم من الحسن والجمال وما منتهاها من الحسن والاحسان رأينا منتهاها الانسان فكان تركيبه اجمل تركيب ووضعه أحسن الاوضاع يا عجباً له خلق النفس الخارج والداخل من الرئتين ليصلح الجسم بادخال النافع

واخراج الضار وكان وضع جسمه جامعاً لجميع تلك الاوضاع في المواد من العلويات والسفليات ولما خفي ذلك على العامة وكثير من الخاصة فتراهم يقولون كيف يتصور أن يكون وضع الانسان وتركيبه ومحاسنه اتقن واجمل من جميع هذا العالم وهؤلاء معذورون لضعف افهامهم فجعل له الصوت المنوع بالحروف فعبر عما في ضميره من العلوم والمعارف بل عن جميع ما في العالم من الصور والاشكال والمعانى واللطائف والرقائق والمحاسن فياليت شعري كيف يعبر هذا الصوت الواحد عن جميع هذه الاشكال ويتنوع كما تنوعت وهو واحد ولكن لاعجب في ذلك فانه ناتج عن حكمة بالغة وقدرة وعلم ولقد حكى صوت الانسان المادة الاثيرية واشبهها ألا ترين رعاك الله وافهمك الحكمة ان المادة الاثيرية تنوعت الى عناصر كثيرة كما ذكرناه فهكذا الصوت وهو واحد تنوع الى حروف مختلفة بمروره بين آلات المضغ من الاسنان واللسان وحوافظ الفم (ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار) ويا للعجب ما للعقول منصرفة وما للابصار منحرفة وما للاسماع لا تعي أفمن هذا الحديث يعجب الجاهلون ولا يتفكرون ولا ينظرون فما

لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون وماللعامة لا يتعلمون وماللعلماء لا يفصحون وما للناس ساهين لاهين وما للشرقيين عن التذكرة معرضين هذا الفم وآلاته خلق لاساغة الطعام فما لنا نراه يتصرف في الهواء فجعل منه حروفاً كما فتت الغذاء وقطعه حتى ينزل الى المعدة مهضوماً فكان الفم يفصل الاجسام والمعاني والكثائف واللطائف ويا ليت شعري ما للامة اعرضت عن هذه الحكم وازورّت

فالصوت الناشئ من الزفير فصل الى حروف قد تكون ٢٩ حرفاً كاللغة العربية وقد تكون ٢٥ واكثر واقل وكم نشأ من هـذا الصوت الواحد حروف ولغات حتى قدرها بعضهم باربع آلاف لغة على ان اللغـات لا يمكن حصرها اذ يمكن ايجاد ما لا يتناهى منها على حسب اختلاف الاوضاع

انما المدهش المطرب العجيب الغريب ان الانسان الذي هو نهاية الابداع في العناصر كيف عبر بهذا الصوت الواحد بآلاف من اللغات عن جميع ما في العالم وقدر على ايجادها في الهواء اللطيف بتموجات لطيفـة تدخل الى الصماخين فتنقل هذا العالم كله من عقل الى عقل ورسولها الامين هو الهواء

اللطيف المتداخل فيه اشعة الكواكب المناسب كل المناسبة لعقولنا وارواحنا العجيبة الغريبة ومن فهم هذا عرف قوله تعالى (الرحمنُ علّمَ القرآنَ خلق الانسان) الذي هو نهاية الابداع الذي عبر عن كل مبدع بهذا الصوت العجيب المتنوع كما تنوعت المادة الاصلية فلذلك اعقبه بقوله علمه البيان فمن جهل كيف كان منشأ العالم من العناصر فلينظر منشأ العلوم كلها من الصوت بتنوع حروفه واني لفي عجب جداً من هذه الحقائق ولا يسع المقام تفصيله فكفى ما ذكرت الآن وفي كتابنا نظام العالم والامم ما هو أوسع من هذا وأرق وألطف في هذا الموضوع . فقالت الفتاة يفهم من هذا انكم تفضلون الحروف على العناصر مع ان العناصر هي الاصل وكيف يفضل الفرع على الاصل فقال :

(وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان)



الخاتمة

فى اجتماع الخليلين

ثم ان الفتاة لما أبدت العجب العجاب في العلوم والمعارف انبهر ابراهيم من افصاحها وسرّ من حسن القائها وعرف انها على علم عظيم فخطبها اعلاناً من ابيها وجرى بينهما العقد في مجلس حافل من العلماء والاعيان واكابر اصبهان وبنى بها وتم الانس لهما وأنشد :

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتنا ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا

فحصل بينهما الاتحاد وامتزجا كالماء والراح والجسد والروح فكانهما غصنا بان ورضيعا لبان وسليلاً وفاء وقد انشد :

مرضى من مريضة الاجفان عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق في الرياض وناحتا شجو هذا الحمام مما شجاني
بابى طفلة لعوب تهادى من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما افلت اشرقت بافق جناني
يا طلولا برامة دارسات كم حوت من كواعب وحسان

بابي ثم بي غزال ربيب | يرتعي بين اضلعي فى امان
ما عليه من نارها فهو نور | هكذا النور مخمد النيران
يا خليليّ عرجا بعناني | لارى رسم دارها بعياني
فاذا ما بلغتما الدار حطا | وبها صاحبي فلتبكياني
وقفا بي على الطلول قليلا | نتباكى او ابك مما دهاني
الهوى راشقي بغير سهام | الهوى قاتلي بغير سنان
عرفاني اذا بكيت لديها | تسعداني على البكا تسعداني
واذكرا لي حديث هندولبنى | وسليمى وزينب وعنان
ثم زيدا من حاجر وزرود | خبرًا عن مراتع الغزلان
واندباني بشعر قيس ولبنى | وبمي والمبتلي غيلان
طال شوقي لطفلة ذات نثر | ونظام ومنبر وبيان
من بنات الكبار في دار فرس | في جمال البلاد في اصبهان
هل رأيتم يا سادتي او سمعتم | ان ضدين قط يجتمعان
لو ترانا يا صاحبي نتعاطى | اكؤس الهوى بغير بنان
والهوى بيننا يسوق حديثاً | طيباً مطرباً بغير لسان
لرأيتم ما يذهب العقل فيه | ابن مصر والفرس مجتمعان
كذب الشاعر الذي قال قبلي | وباحجار عقله قد رماني

التقريظ

سبحان الله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقدأوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولوالالباب ، وله الحمد : حمداً يكافئ عظمته ونعمته ، والشكر : شكراً عاماً وفق طاقة الشاكر ، لانه لا يكلف نفساً الا وسعها ، فان الشكر له نعمة منه تحتاج لشكر ، والهامه الشكر نعمة كذلك ، وهذا لايتناهى ، وما قدروا الله حق قدره ، وعلى نبيه محمد خير من أوتىَ الحكمة وفصل الخطاب وجوامع الكلم والنطق بالضاد : أتم صلاة وسلام ، كما انه اشرف نبي ورسول ، جزاه الله عن أمته أفضل ما جازى به نبياً عن أمته ، بشَّرَ وانذر وهدى الى سواء الصراط ، وعلى آله وأصحابه الناشرين في الآفاق آثاره

اما بعد : — فيا جامع جواهر العلوم والآداب ، ما ذا عليك لو اتخذت سناء الشمس رداء ، وتاج البدر حذاء ، وماذا عليك لو دهشت النهي دفعة واحدة بما في خزائن علمك من نفائس الجواهر ، لكنما أنت حكيم ، والحكيم

يضع الشيء في موضعه ، ينجم العلوم ، على حسب الازمنـة والفهوم ،

وما تصنع بالسيف　　اذا لم تك قتّالا

هذه طريقة الله في كتابه ، وطريقـة محمد في أصحابه ، هذه هي الطريقة المثلى ، هذة هي الطريقة المؤثرة في العالم ، كأنما اتصل بك شعاع من شمس النبوة فانت تنفـذه الى غـيرك ، تنفذه لتكون قد أديت واجباً ، تنفذه لتخرج من ربقة الكتمان ، لا بل أنت تذيعه لتنفع ، بل ليس في امكانك عدم الاذاعة ، لانك مفطور على ان يدبرك غيرك ، شيء وضعه الله في بعض عباده ، أوضعه عبثاً ، معاذ الله ، وضعه لحكمة مرادة ، فان لم تدفعه دفعه ، ولا يمنع من ذلك هبته لك نوع اختيار ، وكفاك شرفاً رضاه بكونك مهبطاً لهذا الخير الجلل ، كالبحر او السيل يفيض فيستقى منه بلا كد ، وسواك يمدون له الرشاء والدلاء والراحلة ، لو ان في أمثالك ولو من يعد على الاصابع ، لضارع حينك أحياناً كان الشرف فيها لارسطو واضرابه ، لكن أزعم ان لا يلبث زمانك قليلاً الا وقد وجد فيه من يستضيء بنبراسك ، ويهتدي بهديك ، فيدب فيه

روح الشعور والحركة فينفع وتكمل المضارعة ، — فلا غرو اذا تلقيت كلماتك كما تلقى آدم الكلمات ،

(حبذاهن من لبانة قلبي وجديد الشباب من سر بالي)

صدرت من عارف يدري ما يقول ، من عارف له قدرة على البيان ، انكشفت لي معانيها الكثيرة في مبانيها القليلة ، والقليل عزيز ، فقلت كما قال الشاعر :

تسعة آلاف الف خلالها جوهر خطير
بجانب الكوخ عند قوم أنت بما عندهم خبير

رأيتك تتنقل فيها بين معان مقصودة كشفت عنها الغطاء ، وما ادراك ما الغطاء ، هو السدُّ الذي نظيره في آية وجعلنا من بين ايديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، ألا أيهذا المستطلع كشف عنك غطاؤك فبصرك اليوم حديد ، ان كنت فيما مضى ممن يقول بالكواكب والريح فقل اليوم :

آمنت بالله الذي يفعل الا شياء لا الكوكب والريح
ما تملك الانجم دفعاً ولا نفعاً ولا ضراً ولا الريح

او كنت تنتظر من هو اغزر مادةً واوسع بياناً فرويدك :

(في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل)

خذوا ما اتاكم به واغنموا   فان الغنيمة في العاجل

رأيت صاحب الكتاب في اضرابه ، فقلت كما قال الشاعر

رأيت ابا النضر في مذحج   بمنزلة الفجر حين اتضح

ورأيت عبارته فقلت كقوله :

نطقت بن عمرو فسهلتها   ولم ينطق الناس امثالها

وكيف أقيم الحجة عليه وقد قال الشاعر :

وليس بصح في الافهام شيء

اذا احتاج النهار الى دليل

فلك الثناء ايها المؤلف على ما اسديت من النعمة على الالباب ، اربة ارتقبت قليلاً ثم جاءت واثرت :

آية ماتكن فقد يرجع الغا   ئب يوماً ويوقظ الوسنان

تحريراً في يوم الثلاثاء ٩ من رجب الحرام سنة ١٣١٩

حسين والي

الشافعي الازهري



فهرست

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تم)

